

مجلد الحجة إلى العربي

دمشق : ايلول سنة ١٩٣٠ م

الموافق ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هـ

١١٧

درس

في حياة أسامة بن منقذ
و «كتاب الاعتبار»

في العام الذي تلا فيه البابا أوربانوس الثاني في كلرمون خطابه الذي يعدّ حجة باعتبار نتائجه الصليبية أفعال خطاب في التاريخ ، ولد ابني منقذ الامراء في شيزر على العاصي (وذلك يوم الاحد ٢٧ جمادي الآخرة سنة ٤٨٨ = ٤ تموز سنة ١٠٩٥) غلام أطلق عليه والداه اسماً تحلى به - في صدر الاسلام اول قائد عربي عهد اليه امر فتح الشام ^(١) ، وكان ذلك الاسم قد ورد في الرقم الحميرية السابقة للاسلام ^(٢) . ذلك أسامة بن منقذ ، مؤلف كتابنا هذا وبطله .

عاش أسامة شهيداً فارساً ، واشتهر مجاهداً مقاتلاً ، ولمع أدبياً وشاعراً ، وتلعي صياداً وجوّاباً . نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة ، وقضى معظم ايام شبابه في البلاط النوري بدمشق ، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وغالب سني كهولته في الدار الانابكية بالموصل ، وفي حصن كيفا على دجلة . زار بيت المقدس في فلسطين وحمى الى

(١) أسامة بن زيد . (٢) - في متحف اللوفر بباريز حجر أقي به من صنعاء الرحالة بر كهاردت زيرت عليه كتابة بالقلم المسند تضمنت اسم «أسامة بن عامر» راجع :

M. lidzbarski - Ephemeris Fur Semitische Epigraphik

(Giessen ١٩٠٢) مجلد ١ صفحة ٢٢١ - ٢٢٢ .

الحرمين ، وننقل بين معظم العواصم الاسلامية مدنية ودينية . عاشر نور الدين زنكي ، وصاحب الخليفة الحافظ . وخلفه الظافر ، وتعرف بنفسه الى بوهمند ونكرد وفألك من الافرنج الصليبيين ، وخصه قبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قريبا ، صديقه صلاح الدين بعطفه . آخي الافرنج - ولا سيما الفرسان منهم - في وقت السلم ، وقاتلهم سيفه حال الحرب ، كما قاتل غيرهم من الاسماعيلية وسائر العرب ، فضلاً عن الأسد والوحوش الضواري . وفي آخر ايامه درّج لنا كل ما خبره بالذات ، وعرفه من مصادره الاصلية ، في مذكرات شائقة رائعة قلّ نظيرها - من حيث الامانة في النقل والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة وطيب النكهة في التعبير - في آداب اللغة العربية .

فحياة أسامة إذن تمثل لنا ازدهار الفروسية الاسلامية العربية في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى . التي بلغت زهوها الكامل في عهد صلاح الدين ، وسيرته تضمن موجز تاريخ البلاد في القرون الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبية الثلاث الاولى - ومذكراته الموسومة « بكتاب الاعتبار » مرآة نفخ فيها المدنية الشامية في أجلى مظاهرها - لا لذاتها فقط بل بالمقابلة مع المدنية الافرنجية التي قامت الى جانبها . وأسامة لو عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً في المجمع العلمي العربي ، ولكان بيته مجلس الأدب بدمشق ، ولراسل « الحلال » و « الملقط » ، ولا أكثر من العيش في الهواء الطلق يدرس طبائع الحيوان ويراقب نموّ النبات ، ولتالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت ، ولكان بلا تردد سيفه اثناء الحرب العظمى جيشاً من المتطوعة تولى قيادته بنفسه .

على بعد (١٥) ميلاً الى الشمال من حماة أكمة صخرية منصبة على ضفة العاصي الغربية يكملها حصن لم يزل قائماً الى اليوم معروفاً باسم « سيجر » تحريف شيزر . شيزر هو المرسخ الذي تمثلت عليه معظم الحوادث المدونة في الكتاب والتي جرت وقائعها في ايام أسامة النقي . الحضبة لتوثها سماها مؤلفو العرب « عرف الديك » . نهر العاصي يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث ، فهي إذن شبه جزيرة بوضعها الجغرافي . غير ان الانسان كمل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ،

مما زاد في مناعة الحصن وفي تعذر الوصول اليه . وشيزر قسمات : قسم في القلعة على الرابية وهو البلد ، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو المدينة . وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها يفتح الى الجسر . وعلى الجسر حصن أطلق عليه اسم « حصن الجسر » .

إذا غزا غازر البلاد السورية من الشمال فأمامه طريقان : طريق بحرية تمر في اللاذقية فالساحل الفينيقي — وهي الطريق التي اختارها الاسكندر وكثير من الغزاة الأشوريين ، وطريق داخلية تماشي العاصي الى حماة فخمص ثم تنعطف غرباً مع وادي النهر الكبير الى شمالي طرابلس ، أو انها تستمر من حمص في سهل البقاع وتصل بالساحل الغربي جنوباً عند سفوح سلسلة لبنان . والطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريين والبابليين مثل رمسيس ونبوخذنصر ، وآثرها أكثر الصليبيين . ولا بد ان طرق هذه الطريق الثانية من اجتياز أقامية (قلعة المضيق) واختارها الجنوبية شيزر المتسلطة على وادي العاصي . هذا ما يجعل لموقع شيزر خطورة حربية .

لشيزر اسم في رأس قائمة المدن السورية المتوغلة في القدم . ذكرها طيبس للمرة الاولى بالهيروغليفية نحو سنة ١٥٠٠ (ق م) وهو يصف إحدى حملاته من مصر باسم « سترار » أو « سيزار » وذكرها بعده خلفه البعيد المنعش الثاني^(١) . ووردت بصيغة « زيزر » في رقم تل العمارنة المسماة . وسماها اليونان الأقدمون « سذرارا » ، والبيزنطيون « سيزر » . وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح أسكنها ملوكس الاول مهاجرين من لارسا في تساليا وغير اسمها الى « لارسا » . على ان الاسم السامي الاصلي ما لبث ان عاد فتغلب وظهر بالعربية في صيغة « شيزر » . وعلى هذه الصورة ورد الاسم في بيت قدمي لامري القيس :

نقطع أسباب اللبابة والهوى عشية رحلنا من حماة وشيزرا
وفي آخر لعبيد الله بن قيس الرقيات :

فواحننا اذ فارقونا وجادروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا^(٢)

(١) راجع (١٩٠٦) J. H. Breasted Ancient records of egypt (chicago)

مجلد ٢ فقرة ٥٨٤ و ٣١٤ . (٢) باقوت « معجم البلدان » (لبيغ ١٨٦٨) ٣ : ٣٥٣

اما مؤرخو الإفرنج الصليبيون فأطلقوا عليها اسم « قيصرية » (Coesarea) او « قيصرية العاصي » للتميز .

فتح العرب شيزر عام ١٧ (٦٣٨) فيما فتحوا من المدن الشامية ، وذلك عقب الاستيلاء على حمص وحماة بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ، فتلقاه اهل شيزر « بكفّ روث ومعهم المقاتلون ، ورضوا بمثل ما رضي به اهل حماة ^(١) » . وبالنظر لموقع البلدة الجغرافي ، وباعتبار كونها مفتاح سورية الداخلية ، بقيت مطمح ابصار البيزنطيين الذين استخلصوها مراراً من ايدي العرب وخسروها ، الى ان أخضعها الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٩ وبقيت بيد الروم حتى عام ١٠٨١ وهو العام الذي استرجعها فيه عزالدولة سديد الملك ابو الحسن علي جد أسامة من ايدي الامبراطور الكسيس كومنينس .

وكان صالح بن مرداس صاحب حلب قد منج الامراء المنقذين من بني كنانة عام ١٠٢٥ إقطاعاً في جوار شيزر . فتمكن احد هؤلاء الامراء (مقلّد) من الاستيلاء على كفر طاب سنة ١٠٤١ . وجاء بعده خلفه ابو المتوّج مقلّد بن نصر الذي بسط سلطته الى العاصي وبني حصن الجسر عند قديم شيزر ليقطع عنها المدد . ولكن البلدة بقيت بيد البيزنطيين الى ايام سديد الملك . فسديد الملك اذن هو مؤسس الدولة المنقذية بشيزر . ولدن وفاته عام ١٠٨١ عقبه ابنه عزالدولة ابو المرحف نصر ^(٢) ، وهو مع اشتهاره بالورع وحب السلام نولى الى حين أفامية وكفر طاب واللاذقية عدا شيزر .

توفي ابو المرحف بلاعقب عام ١٠٩٨ ، فانطلقت الإمارة من بعده الى اخيه الأصغر مجد الدين ابي سلامة مرشد (١٠٦٨-١١٣٧) ، والد مؤلف كتابنا أسامة . ولكن مجد الدين شغف بالصيد ونسخ القرآن أكثر من السياسة ، فننازل عن السيادة لاخيه الأصغر عز الدين ابي العساكر سلطان مرددآ (والله لا وليتها . ولا أخرج من الدنيا كما

(١) البلاذري «فتوح البلدان» (لیدن ١٨٦٦) ١٣١ . (٢) فصل ذلك ابن الاثير

« كامل التواريخ » في Recueil des Historiens des Croisades Historiens

Orientaux (paris ١٨٧٢) ٥٠٤ : ١

دخلها (١) .

وكانت شيزر على عهد سلطان عم أسامة عرضة لغزوات مثابغة يفزوها بنو كلاب في حلب ، وكذلك الاسماعيلية والروم البيزنطيون والافرنج الصليبيون رشقها الامبراطور جان كومينيس عام ١١٣٨ بالخنق عشرة ايام متوالية . وحاول الافرنج الاستيلاء عليها مراراً ، ولكن على غير جدوى . فأخذتها من السقوط مناعتها الطبيعية وحصونها القوية ، وزعامتها المنقذية .

وفي خلال إمارة (سلطان) جرت معظم الحوادث التي دوّنها أسامة في مذكراته ، وهو شاهد عيان لها ، فخلد وقائعها وجعلها اثراً لنا . ومع ان أسامة كان احد اخوة اربعة هو ثانيهم ، فان عمه سلطاناً - ولم يكن له اولاد - ولد ذكر - خص أسامة بعطفه ورعايته ، ودرّبه على الفنون الحربية ، وكان يتحنن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال (٢) ونشأ نشأة من يريد ان يجعل منه خلفاً له . وكثيراً ما وكل اليه قضاء مصالح اهل بيته مثل مرافقته لزوجته وعمه واولادها من شيزر في ايام الحر الى مصياد (٣) . اما بعد ان رزق العلم ولدّاً يخلفه فوجه نظره نحو ابن اخيه نغيرت ، والحسد أخذ يعمل فيه ، مما جعل أسامة الشاب يغادر شيزر موقتاً عام ١١٢٩ ، ثم اطردت هجرته بعد وفاة والده أخي سلطان في ٣٠ ايار سنة ١١٣٧ . وكانت جدة (٤) أسامة لايه حذرنه مرة من عمه وقد رأت حفيدها داخل البلدة مساء وبهذه رأس أسد ضخم كان قد اصطاده ، فأسدته النصح مشيرة الى الأثر الذي يحدثه عمله هذا في نفس عمه قائلة له « ما بقر بك هذا منه وانه

(١) ابوشامة « كتاب الروضتين في اخبار الدولتين » (مصر ١٢٨٨) ١ : ١١١ - ١١٢ وابن الاثير في (Recueil) ١ : ٥٠٤ . (٢) « كتاب الاعتبار » (ليدن ١٨٨٤) ٧٦ ولا بد من التنبيه الى ان الاشارات فيما بعد كلها الى هذه الطبعة - طبعة درنبرغ - رينا ثم الطبعة الجديدة المبينة على المخطوطة الاصلية والتي نولى الآن طبعتها في طبعة جامعة برنستون العربية . (٣) كتاب الاعتبار ١٠٩ .

(٤) ابن الاثير « تاريخ الدولة الأتابكية » في (١٨٨٧ paris) « Recueil »

مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٠ يجعلها والدته .

يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشةً ونفوراً^(١) » . ومع هذا فإن (كتاب الاعتبار) يحفظ لنا نكتة تمثل شهامة سلطان . وخلاصتها ان امرأة كان قد تزوجها سلطان وطلقها فوُضعت أسيرة في يد الافرنج ، ففكّ للحال أسرها وسلمها الى أهلها فائلاً « ما دُعِ امرأة تزوجتها وانكشفت عليّ في أمر الافرنج^(٢) » .

توفي سلطان حوالي عام ١١٥٤ خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد ، وهو آخر الامراء من بني منقذ وفي ايامه جرت في شيزر مأساة منجعة قضت على بني منقذ بأسرها . وذلك خلال ختان ولد لتاج الدولة فقد أولم الوالد وليمة حضرها جميع آلّه ، وفي اثناها حدث الزلزال الشهير عام ٥٥٢ (١١٥٧) الذي « ملك فيه مالا يحصى » والذي خرب حماة وشيزر وكفرطاب والمعرّة وأقامية وحمص وحصن الاكراد الخ^(٣) » . ولم ينج من بني منقذ احد^(٤) سوى زوجة تاج الدولة التي انتقلت من تحت الردم ، الا ان نور الدين صاحب دمشق عاد فعمّر شيزر .

(التأثير الأكبر في نفسية أسامة كان لعمه سلطان وبعده لوالده) = تمثل صورة الوالد التي ابقاها لنا أسامة في مذكراته رجل نقوى وسلام لانهه شؤون هذا العالم الغاني ، بفرغ « زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله^(٥) » . مع ذلك لا يجب ان يُفهم من ذلك انه كان متقاعداً جباناً . ففي غير مكان يذكر أسامة ان والده لم يكن « له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله^(٦) » ثم يقتبس عنه عبارة فالحا لما حدّره ولده في معركة : « يا ولدي في طالعي اني لا ارتاع^(٧) » . ولنتشهد الآن ببعض الوقائع الدالة على نوع التربية التي ترباها أسامة في ظل والده وعمه ، ومررها كلها في قول أسامة « ما رأيت الوالد رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فيّ وأرى من اشفائه وابشاره لي^(٨) » . أسامة وهو دون العاشرة^(٩) ، بطعن خادمه طعنة نجحية قاضية دون ان يستوجب سخط والده

(١) كتاب الاعتبار ٩٣ . (٢) ص ٥٣ . (٣) ابن الاثير في « Recueil »

١ : ٥٠٣ . (٤) ايضاً ٥٠٥ - ٥٠٦ . (٥) كتاب الاعتبار ١٤٤ .

(٦) ايضاً ١٩٩ . (٧) ايضاً ٤١ . (٨) ايضاً ٧٦ . (٩) ايضاً ١٠٧ .

ببأشرف القتال وهو حدث بالغ فيذكر كيف أنه سيف أول قتال حضره حمل على أفرنجي طعنه فخرج من السرج خلفه جسمه وقوة الطعنة^(١) . يرى حيلة وهو صبي على حائط الدار فيمسلق اليها . يأخذ يحزم رأسها بسكينه الصغير وهي تلف على يده ووالده يراه ولا ينهاه^(٢) . نعود رهائن من أفرنج وأرمن كانت في شيزر الى بلدها فنقع في أيدي صاحب حص وهو مسلم ، فتصدر أوامر والد أسامة له سيف هذه الصيغة « اتبعهم بن معك وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم^(٣) » الكلمات الأخيرة (ارموا بانفسكم) تقع من نفس أسامة موقعاً شديداً .

وللدلالة على الرابط البنوي الذي كان يربط الابن بالوالد يكفي الاستشهاد بعبارة أوردها أسامة بعد ان أطلب يحسن خط والده : « وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وانما ذكرته لأستدعي الرحمة (على الوالد) ممن وقف عليه^(٤) » .

أما والده أسامة فلنا ان نفحص المعدن التي جبت منه من مراجعة حادثة ذكرها أسامة^(٥) . ومفادها ان الاستماعيلية مرة هاجمت شيزر والرجال متخلفون ، فوزعت أم أسامة السلاح والبست ابنتها الخف والازار واجلسنها على روشن يشرف على الوادي حتى اذا ما انتهى الاعداء اليها تدفعها وترميها الى الوادي فتراها ميتة ولا اسيرة سيف ايدي « الفلاحين والخلّاجين^(٦) » . حقاً ان والده كجده كانت من « أمهات الرجال^(٧) » .

تلك هي البيئة التي نشأ فيها أسامة وترعرع . فتصائب عوده وهو صرن ، والف افتحام المخاطر والمغامرات ، ونشأ على مبادئ الفروسية والشهامة . وذلك سيف عصر تلاحقت فيه الحروب ، ولتعاينت الغزوات من الأفرنج والعرب - من مسيحيين ومسلمين ، وفي بلاد كثرت فيها الوحوش الضاربة والحيوانات المفترسة . حتى ان أسامة ما كان يخرج للصيد سيف جوار شيزر الا وهو مسلح مستعد للعند المفاجي^(٨) . ولم يشهد أسامة القتال في شيزر وحماة في شمالي سورية فقط ، بل في عسقلان وبيت جبريل

(١) كتاب الاعتبار ٣٠ . (٢) ايضاً ٧٦ . (٣) ايضاً ٣٩ .

(٤) ايضاً ٩٢ . (٥) ايضاً ٩٣ . (٦) ايضاً ١٤٦ .

من أعمال فلسطين ، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي ديار بكر والموصل . فلا غرو إذا أصبح اسم أسامة في التواريخ الإسلامية مرادفاً للبطولة .
ولقد دعا الذهبي « أحد أبطال الإسلام »^(١) ووصفه ابن الأثير بأنه « كان من الشجاعة في الغابة التي لا مزيد عليها »^(٢) . وأسامة نفسه أجمل اختبارات الحرب بقوله في آخر أيامه « فكم لقيت من الأهوال ، وفتحمت المخاوف ، والاضطراب ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرمح ، وجرحت بالسهم والجروح »^(٣) . هتاف ليس المقصود منه التأثير الخطابي فقط بل تبين الحقائق . ومن خلال كل هذه التجارب تبين لنا شخصية أسامة . فإذابها شخصية مستقلة تستقبل الأفراس ، وتودع الأحزان ، تواجه الظفر وتجاهه الفشل ، بروح الصبر والتسليم . النصر — باعتبار أسامة — من الله^(٤) . وكذلك الهزيمة . الموت لا « يقدمه ركوب الخطر ، ولا تؤخره شدة الحذر »^(٥) . « الله مقدر الأقدار ، وموقت الآجال والأعمار »^(٥) . في الجملة الأخيرة متضمن فلسفة الحياة بامرأها كما فهمها أسامة .

وفي مجمل معاملاته مع اصدقائه وخصومه يدهشنا بميله للنصفة والعدالة . هاك مع رفيق في مكان مشرف على ثمانية فرسان من الافرنج . الرفيق يشير باخذه على غرة ، ولكن جواب أسامة : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم انا وانت »^(٦) . والمبهج انه لا يتم سرد هذه الحادثة ، التي هزم فيها مع رفيقه ثمانية ، حتى يشرع بسرد غيرها يهزمها فيها « روييل »^(٦) . يروي قصة ممتعة تظهر الطب الافرنجي سقيماً بالمقابلة مع الطب العربي^(٧) — وهي من أبدع قصص الكتاب — ثم يردفها بأخرى تظهر الوجهة الفضلى من طب المغرب^(٨) . يطب بوالده صياداً . ولكن سلامة ذوقه توحى اليه على الآخر « ما أدري : كنت أراه بعين المحبة . كما قال القائل : وكل ما يفعل المحبوب

(١) « دول الإسلام » (حيدرآباد ١٣٣٧) ٢ : ٧١ . (٢) « الدولة الانطاكية »

في (Recueil) مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٧ . (٣) « كتاب الاعتبار » ١٢١ — ١٢٢

(٤) ايضاً ١٠٩ . (٥) ايضاً ١٢١ . (٦) ايضاً ٤٣ . (٧) ايضاً ٩٧ — ٩٨ .

(٨) ايضاً ٩٨ .

محبوب . ما أدري : أكان نظري فيه على التحقيق . وأنا ذاكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه ^(١) .

قضى أسامة سنين غير قليلة في البلاط الفاطمي بمصر (١١٤٤ - ١١٥٤) وربما لم يكن لذلك العهد من دار عشت فيها جرائم المكائد والمفاسد كما في تلك الدار : يد الوالد على الابن ، والابن على الوالد ، وبد الخليفة على الجميع . ابن الاثير ^(٢) يدعي ان أسامة هو الذي أشار على عباس بن ابي الفتح بقتل العادل وزير الظافر ^(٣) . ولكن مذكرات أسامة لا تدل على انه لوّث بديه في حال من الأحوال . صلاح الدين الغسياني ، ذلك الجلف التركي ، بوسط من يشاء من رجاله (اي بأمر يقطعهم من الوسط شطرين) لسبب اول غير سبب ، فلا يتردد أمامة في الشفاعة بهم ^(٤) . عم أسامة يجلوه عن مسقط رأسه ، ثم يودي الزلزال بحياة ابن عمه وسائر آله في شيزر ، فيرثهم أمامة الشاعر بقصيدة كلها شعور طيب :

لم يترك الدهر لي من بعد فقدم قلباً أجشمه صبراً وسلواناً
فلورأوني اقالوا مات أسعدنا وعاش لهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني عنهم فوضح ما قاله تبياناً
بادوا جميعاً وما شادوا فواجباً للخطب أملاك عمراً وعمواناً
هذي قصورهم أمست قبورهم كذلك كانوا بها من قبل مكاناً

الى ان يقول :

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم وان أروني مناواة وشناآنا ^(٥)

واب احترام أسامة للنساء لامر يسترعي انتباهنا . فانا نراه يضع تأليفاً موسوماً « باخبار النساء » وخصص في (كتاب الاعتبار ^(٦)) صفحات الاشادة باعمال البطولة التي قام بها بعضهن وبينهن والدته . وفي قصته مع خادمتها العجوز التي أفرد لها بيتاً في

(١) « كتاب الاعتبار » ص ١٤٤ . (٢) « كامل النوارنج » أيسالا ١٨٥١

١١ : ١٢١ . (٣) فابا « كتاب الاعتبار » ٦ . (٤) ايضاً ١١٦ - ١١٧ .

(٥) ابو شامة ١ : ١٠٦ . (٦) ٨٧ - ٩٧ .

داره وكان يتناديها « يا أمي ^(١) » نافذة نطل منها على الشيء اللطيف ضمن أعماق نفسه . وما أطف ملاحظته بعد أن اقتدى أسيرة مسلمة مع غيرها من يد الافرنج فهربوا قبل أن يدفع الفداء فألزمه الافرنجي القيمة كلها « وهان ذلك علي » أسرني بخلاص اولئك المساكين ^(٢) » .

حين لم يكن أسامة منهكاً بقتال الاعداء من البشر كان يشتغل بقتال الحيوانات المفترسة التي كانت سورية الشمالية يومئذ ملأى بها ، او بصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحمر الوحش بالبازي والباشق في شيزر ودمشق وفي الموصل والقاهرة . ونرى زبدة اختباراتِه ضمنها فصلاً في الصيد ختم به كتابه ، فصل ربما لم يكن في اللغة العربية أنفس منه في موضوعه . أسامة يقول عن نفسه انه شهد الصيد سبعين سنة ^(٣) وانه حضر قتال الاسد في مواقف لا تحصى ، وقتل عدة منها لم يشاركه في قتلها احد ^(٤) وان الخليفة الحافظ عناه في سؤاله الانكاري « واي شيء شغل هذا الالقتال والصيد؟ ^(٥) » لدته في درس الحيوان جماله بكشف ان « الأسد كالإناس فيها الشجاع وفيها الجبان ^(٦) » وان « الاسد اذا خرج من موضع لا يبد له من الرجوع اليه ^(٧) » وان « الاسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه ، وفيه غفلة وبله ، ما لم يُجرح ، فاذا جرح لم يفتنه هو الاسد ^(٨) » .

وان النمر « دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعاً ^(٩) » . على ان صاحبنا شارك جيله في بعض خرافاتهم : « ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فارة مات ، ولا ترتد الفارة عن جريح النمر ^(١٠) » . ولما عرض افرنجي في حيفا (فهداً) للبيع أدرك أسامة لأول نظرة من طول الوجه وزرقة العينين انه نمر لا فهد ولا يصالح للشر ^(١١) » . ومن دقيق ملاحظاته ان الجباري اذا اقترب منها الصقر (استقبلته

(١) كتاب الاعتبار ص ١٣٨ . (٢) ايضاً ٦٢ . (٣) ايضاً ١٦٧ .

(٤) ايضاً ٨١ و ١٠٦ . (٥) ايضاً ١٤٢ . (٦) ايضاً ٧٨ . (٧) ايضاً ٧٨ لم

أجد في الكتب العلمية ما يثبت صحة هذه الملاحظة . (٨) ايضاً ٨١ .

(٩) ايضاً ٨٢ .

بذنبها . فإذا دنا منها سلحت عليه بأنت ريشه وملاّت عيفيه وطارت ^(١) » .
 نظر أسامة للصيد كسبب للهو — ظاهر من البيت الذي استعمل به فصله :
 ولله مني جانب لا أضيعه . وللهو مني والبطالة جانب ^(٢) .
 ونزعته الارستقراطية تلوح من عدم تلبية طالب نور الدين عندما سأله ان يصلح الباز
 فرفض وأجاب — لما أظهر نور الدين عجزه كيف ان أسامة يقضي عمره بالصيد ولا يحسن
 إصلاح الباز — « يا مولاي ما كنا نصلحها نحن ، كن لنا باز ياربة وغلان يصلحونها ^(٣) » .
 درس أسامة النحو عشر سنين على (ابوالطَّمِيطُي ، سيديوبه زمانه) الذي كان قد
 تولى دار العلم بطرابلس ^(٤) . ولا شك ان سياق دروسه تناول فضلاً عن النحو الخط
 والشعر والقرآن — وهي فروع الثقافة في ذلك العصر . فتهذب أسامة على الطريقة التي
 كان يتهذب بها أشرف العرب في زمانه . ونشأ رابطة كاتباً ، واديباً شاعراً .
 بهذه الصفة الاخيرة عرفه معظم الذين ترجموه . فالذهبي ^(٥) يذكر عن لسان أسامة
 انه قال كان يحفظ أكثر من عشرين الف بيت من الشعر الجاهلي ، والراجح انه لم يتصل
 بجيل أسامة هذا المقدر من الابيات . ويقول عماد الدين الكاتب الاصفهاني الذي اجتمع
 بأسامة في دمشق في « خريدة القصر وجريدة العصر ^(٦) » : « أسامة كسسه ، في قوة
 اثره ونظمه حلوا المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي
 النجم في سماء النباهة » . ابن عساكر تليد أسامة ، ذكر في (التاريخ الكبير ^(٧)) ان
 لأسامة « بدأ ببضاء سيفه الألب والكتابة والشعر » واقفيس عن اسائه اقدم قوله ان
 أسامة « شاعر اعل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر » وان مقطعاته « أحلى من الشهد

(١) كتاب الاعتبار ١٠٣ قابل C. H. Stockley, Big Game Shooting in the indian Empire (London ١٩٢٨)

(٢) كتاب الاعتبار ١٣٩ . (٣) ايضاً ١٤٤ . (٤) ايضاً ١٥٣ .

(٥) ملحوظ (Paris ١٨٨٩) « Vie d' ousama » Derenbourg, ص ٥٩٥

(٦) (باريز ١٨٨٧) ١٢٢ .

(٧) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤٠٠ — ٤٠١ .

والذي من النوم بعد طول السهد » . واقتبس ياقوت سيفي (معجم البلدان ^(١)) من أشعار أسامة . وأفاد أبو شامة ^(٢) ان صلاح الدين الأيوبي كان « عنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة وهو به مشغوف ، وخطره على تأمله موقوف ، وإلى استجسانه مصروف » . وصلاح بن يحيى (٣) بإخراجه باقتناء ديوان شعر « عز الدين ! » أسامة بن منقذ بخطه . وعليه فيكون أسامة قد عُرِفَ لمعظم الذين ترجموا له بشاعريته .

وهاك إشارات تدل على قوة الإبداع في أسامة الشاعر قالها في خمرس له قلمه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفعي ويسعى سعياً مجتهد

لم آله مذ تصاحبنا فحين بدا لناظري افترقنا فرقة الأبد ^(٤)

وغيرها كتبها على حائط مسجد في حلب ، وكان قد زار المسجد قبلاً في طريقه إلى الحج :

للك الحمد يا مولاي لكم لك منة عليّ وفضل لا يحيط بها شكري

نزات بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأدبت مفروضة وأسقطت ثقل ما تحملت من وزر المسببة عن ظهري ^(٥)

وأخرى تعرب عن حنينه لوصفه الشامي وتوق نفسه للرجوع إلى أهله ، وقد كتبها على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرهاً وما سكنت روعي إلى شجن فيها ولا سكن

والقبر أستتر لي منها وأجمل لي إن صد في الدهر عن عودي إلى وطني ^(٦)

واليك ما كتب في صدر كتاب إلى بعض أهله :

(١) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤١٧ . (٢) ١ : ٢٤٧ . (٣) « تاريخ بيروت »

(بيروت ١٩٠٢) ٣٥ - ٣٦ . (٤) الذهبي لمحق (Vie d'ousama) ٥٩٦ .

قابل ابن عساكر ٢ : ٤٠٢ ، ابن خلكان ١ : ١١٢ ، أبو شامة ١ : ٢٦٤ ، عماد الدين

الكاظم ١٢٣ . (٥) ابن الأثير « الدولة الأتابكية » في (Recueil) مجلد ٢ جزء ٢

ص ٢٠٨ . (٦) ابن عساكر ٢ : ٤٠١ .

شكا ألم الفراق الداس قبلي ورؤيت بالنوى حبي وميت
وأما مثل ما ضمنت ضلوعي فإني ما سمعت ولا رأيت (١)

ويتضح شغف أسامة بالكتب من ملاحظة أهداها عندما عادت أسرته من مصر
فوقعت سيفه ابدي الافرنج وخسر الكثير من المال فلم بأسف عليه أسفه على ما فقد من
الكتب وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة « فان ذهباها (على ما قال)
حزازة في قلبي ما عشت (٢) »

جامعة برنستون : فيليب حتي

عضو المجتمع العلمي العربي



(١) ابن خلكان ١ : ١١١ .

(٢) « كتاب الاعتبار » ٢٦ .

(١) اخلاق المتنبي

- ١٠ -

لبس من المستسهل ان أخوض في شيء من الكلام على اخلاق المتنبي وعلى طبائعه ، وعلى الخصوص فان ابا الطيب لم يكتب ترجمته بقله وان اهل عصره لم يفيض لم قول واف في هذا الباب ، فلانعرف هيأته ولا نعرف تركيب خلقته ، ولو كنا نحيط بطائفة من هذا الامر لاستطعنا ان نستدل بذلك بعض الاستدلال على معرفة اخلاق المتنبي وطبائعه ، فما وصل اليها من أقوال اهل زمانه في هذا الموضوع لا ينفع غيلاً . -

ان ابا عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي لما قدم عليه المتنبي في سنة عشر بن وثلاثمائة اي لما كان عمره سبع عشرة سنة وصفه فقال : قدم اللاذقية وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمي أذنيه فأكرمه وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ، وازضاف الى هذا كله انه لم يسمع منه كلمة هنزل قط .

والذي أعلمنا به ابو الفرج وقد كان ابو الطيب يأنس به وبأمنه على غيبته ان سيف الدولة كان يفتاظ من تعاطف المتنبي .

وقد عاتب ابو عبد الله بن خالويه سيف الدولة لما غمز غلانه على المتنبي فقال له سيف الدولة : بتعاطف تلك العظيمة وبنزل تلك المنزلة لولا حماقتي .

وحكي عن ابي حمزة البصري انه بلا من ابي الطيب خلا لا محمود من عافة المذهب ، والصدق وبلا منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن .

ووصفه ابن فورجة فقال فيه : كان داهية سرا لسان شجاعاً ، حافظاً للأدب ، عارفاً باخلاق الملوكة ، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشربه على المال .

والذي دلنا عليه الوحيددي ان المتنبي كان سيئ الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري

عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

حفرة سيف الدولة ، وعرضه لعداوة الناس .

وقد ذكر ابو علي الخاتمي ان ابا الطيب المنبي عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة فلا يرى احداً الا ويرى لنفسه مزينة عليه حتى ثقلت وطأته على اهل الأدب بمدينة السلام وبلغ من شذوذه انه لبس مرة سبعة اقبية الموتنة وكان الوقت آخر ما يكوث من الصيف وأحق بتخفيف اللبس وشهد له ابو علي هذا بالفضيلة وصفاء الذهن ، وجودة القدح .

وكان ابو علي الفارسي قبل معرفته بالمنبي يستثقله عمر قبح زبه وعلى ما كان يأخذ به نفسه من الكبرياء .

هذا ما تناهانا اليه من وصف بعض ظواهر المنبي وبواطنه بوجه التقريب ، ولم يكن في مختلف هذا الوصف شيء من الخروج من لمقدار ، فمن المحقق ان الرجل كان قليل الميل الى الهزل ، فان روحاً مثل روحه نزاعة الى العظمة والعلو لاشأن لها في الهزل ، فقد كانت حياته جداً كل الجد ليس فيها متسع للهزل ، وان رجلاً يضرب في مناكب الارض وبواديها وحواضرها ابتغاء لآخر جل ان يسبحي :

يقولون لي ما أنت سيف كل بلدة وما تبغي ، ما تبغي جل ان يسبحي

ان رجلاً هذا هو مظهره في الحياة لا يجد لغير الجد معنى ، ولئن عبث سيف قليل من شعره ، مثل عبثه في قوله وقد مر برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره :
وايكما كان من خلفه فان به عضمة من الذنب

او مثل عبثه في قوله :

اذا شاء ان يلهو بلحية أحرق أراه غباري ثم قال له : الحق

نعم فما كان العبث من مذهبه .

ومن المحقق ان ابا الطيب كان صادقاً عفيف المذهب :

ومن هوى الصدق سيف قولي وعادته رغبت عن سحر في الرأس مكذوب

فلسنا نجد في اضعاف شعره نزعة الى اللهو والطرب ، فقد كان ينظر الى الحياة من ناحيتها السوداء وقلمنا نظرا اليها من الناحية البيضاء اللامعة ، فما تغنى في شعره بشيء من نضارة الحياة ولذتها ، وانما أعرب في شعره عن الألم وقلمنا يجتمع اللهو وألم النفس ، واللهو

نفوس لا سبيل للألم إليها ، أما الأبيات التي ندل على ألم روحه فهي كثيرة - ففنيها :
 فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللثام ومنها :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من ابال
 فصررت اذا اصابني سهام تكسرت النصال على النصال
 واقعد أكثر من الاشارة الى تضافر المصائب فن قوله في مصر وقد أصابته حمى :
 أنبت الدهر عندي كل نبت فكيف وصلت انت من الزحام
 وفي هذه القصيدة يقول :

وان أسلم فما أبقي ولكن سلت من الرحام الى الرحام
 فحياته في نظره موت له ، فما أقل سروره :
 وقت بضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الام
 أتى الزمان بنوه في شبابه فسرهم وانبتاه على الحرم
 على انه قد جاء في شعره ما يدل على ذوقه شيئاً من اللذات ، ففني قوله :
 در در الصبا ايام تجر يسر ذبولي بذر آئله عودني
 ومنه قوله :

وانعم ولذ فللمور أواخر ابدأ اذا كانت لمن أوائل
 مادمت من أرب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل
 للهو آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل
 ولكن مذهبه في اللذات العفة التامة :

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلها
 وترى المروءة والفتوة والابوة في كل مليحة قسراتها
 من الثلاث المانماتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها
 نعم هذا هو مذهبه : المروءة والفتوة والابوة ، وان بيتاً مثل هذا البيت :
 اذا كان الشباب السكر والشيب هما فالحياة هي الرحام

لا يصدر عن قلب فضي صاحبه شرح الشباب في شيء من اللهو وفي شيء من نوابع
اللهو ، فما اصدقفه في هذا الكلام :
وما كنت ممن بدخل العشق قلبه .

اما شجاعته فلا ريب فيها وان رجلاً يقولون له : كذبت لك جماعة تريد بك الشر
فخذ معك من يسير بين يديك فيفتاظ من هذا القول غيظاً شديداً ويقول : والله
لا أَرْضَى ان يتحدث الناس باني سرت في خفارة احد غير سبني ، ان رجلاً مثل هذا
يحذرونه من الموت فلا يبالي بتحذيرهم استصغاراً لشأن الموت ، واجنقاراً لمن كمن له ،
فيقيم في الذي حذروه منه لا يدخل الخوف قلبه ، ولقد أعانته على هذه الشجاعة صحبته
اللاعرب ، والفته لغزوم ، وسيره في البوادي ، ومصاحبته لسيف الدولة في كثير من
غزواته ، فالرجل كان شجاعاً لاشك في شجاعته والذي يرى حياته موتاً يستوي عنده
الموت والحياة .

وغاية المفرط في سلمه كفاية المفرط في حربه

فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

واما شرهه على المال فهذا امر طبيعي ، فقد ذاق المتنبي في حادثة سنة ألم الفقر ،
فما زال يسمي في طلب المال حتى اجتمع له شيء منه ، فحرص على ثروته ولم يهذر
ولا يعرف قيمة المال الا الذي يتعب في جمعه ، والمتنبي لم يغن من غير ان يساوره كثير
من الألم ، واي ألم أعظم من ألم الحساد ، فهل يلام على حرصه ولا سيما ان الرجل كان
محمداً الشأن حتى كان حساده يمتنون موته ، فكانوا يبعضونه ، ويترصون به الدوائر ،
هل يلام على اتخاذ المال جنة يدفع بها عن نفسه اذا تعرضت الدنيا عنه في يوم من الايام
فما ذا كان يلاقي من الناس في حالة اعراضها ، أفكان يلاقي منهم غير الشمانة ؟

على اني أعنف ان الرجل كان مقتصداً ولم يكن بخيلاً والفرق بين البخل وبين
الاقتصاد ظاهر ، فما أظن ان ابا الطيب كان من البخلاء الذين ينشأ بخلهم عن مرض
من امراض العقل فلا يجدون في انفسهم سلطاناً عليه ، وإنما كان مقتصداً بحسب الامور
حساباً وبعد لها عندئذ حتى لا يفاجئه الزمان بمكارهه .

واما ضعف عقيدته ورقة دينه فهذا امر صحيح ، وكثيراً ما قرع المنبيء هذا الباب كما قال الشعالي ، وقد رويت لكم الايات التي دلت على اخلاقه بالدين واستمائه بامرء والظاهر ان الرجل كان على مذهب المتشككين .

يخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقليل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ولكن أظهر أخلاق المنبيء التعظم وقلة المداراة ، وقد أثبت هذه الأخلاق ما كان يقع له في مجالس سيف الدولة وكافور وفي بغداد ، فأبو الطيب كان قليل المداراة للناس ، وقد شهدتم كيف كان يتعرض لأكابر الادباء ويستأنس بجهيلهم ، وليس معنى هذا ان ابا الطيب كان يجهل بعواقب تعرضه للناس ، ويخونهم قلة المداراة ، ولكن الرجل كان شاذ الخلق ، يصعب عليه ان يداجي ويداري ، ولو فعل شيئاً من ذلك لملك القلوب ، ونحن نشاهد في عصرنا من لا يداجي ولا يداري ، فنقبض القلوب عنه ويطسئون السفهم فيه ، والناس ينقادون عادة من نواحي العاطفة والهوى ، قرب ابتسام نبتسمه بنزع ما وفر في الصدور من غل او حقد ، ورب نقطيع نقطبه بغرس انا البغضاء في القلوب ، هذه هي طبيعة البشر . ولكن ابا الطيب اكبر من ان يحتاج الى شيء من المداراة والمداجاة ، فكان يجري على طبيعته لا يعبأ بشيء من غضب الناس عليه أو طعنهم فيه ، فان له من الثقة بخلود عبقريته ما يجعله يحقر اولئك الغاضبين الطاعنين .

ليت ثنائي الذي أصوغ فدى من صيغ فيه فانه خالد

فالطعن على اهل العبقرية يذهب جفاء ، وتمكث عبقريتهم في الارض ، فلا الافراط في الثناء على اهل البلاءة يهدم سبيلاً الى الخلود ، ولا الافراط في نقص اهل العبقرية يخلق الأبواب في وجه خلودهم ، نعم كانت ابو الطيب يعرف هذا كله ، ولكنه أرفع من ان يُسرف الى المداجاة والمداراة . ماداجي ولا داري الا كل من لا يثق بقوة نفسه ، وكل من يحتاج الى قوة غيره ، ويستعين بها على حياته .

على ان ابا الطيب كان يجاري الناس في بعض الاحابين في الخداع ، وما بجارانه

هذه الا هناء بالناس :

ولما صار وُدّ الناس خبيّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت اشك فيمن اصطفيه لعلي انه بعض الأنام

فالرجل كان قليل المداراة ، وقلة مداراته أوغرت الصدور ، وهاجت الضغائن ،
ولكن ابا الطيب كان يستغفر من حسد الحساد ، واغتياض المتعاطفين ، فلم يفكر فيهم ولا
شغل ذهنه بهم ، فقد سلّح الأدب بابيات سلاحاً بهزاً بثرثرة الثرثار وهذر المهذار ،
أفأجد حاجة الى ان أعيد هذه الابيات وقد سمعتموها في المجلس الماضي و بكفيتني ان
أشير منها الى بيت واحد :

ومن بك ذا فمر مريض بهجد مرأ به الماء الزلالا
او الى بيت آخر :

وأعجب من ناداك من لا يجيبه وأغيط من عاداك من لا تشاكه

بهذه الابيات واشباهها كان المتنبي يستحق المتطاولين للوقية فيه ، فما أصدق الذي
وصفه بمرارة اللسان ، واي مرارة أصر من هذه المرارة ، ولو جمعوا كل ما قالوه فيه من
طعن لما وزن حرفاً من هذه الابيات :

بذي العباوة من إنشادها ضرر كما أنصبر زجاج الورد بالجمل

نعم كان ابو الطيب مرّ اللسان ، فاذا غضب على احد أذاقه مرارة هذا اللسان
فانه لما فارق سيف الدولة لم ينج سيف الدولة من قوارصه ، وفي اول قصيدة قالها - في
كافور أثر من هذه القوارص :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى
وأعلم ان البين يشكيك بعده
فان دموع العين غدر برهما
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
وللتفلس أخلاق تدل على الفنى
وقد كان غداراً فكأن أنت وافيها
فلمست فؤادي ان رأيتك شاكيها
أذا كنت اثر الغادرين جواريا
فلا الحمد مكسوراً ولا المال باقيا
أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

فهذا الشعر كله تعريض بملك حلب ، والظاهر ان سيف الدولة كان يؤلم المتنبي

في عطايه ، فكأن بنعم عليه ولكنه كان يبطل نعمته بالن والاذى فاذا تأخر مدح
ابي الطيب عنه أنكر له بالخال (١)

أرى ذلك القرب صار ازوراراً وصار طويل السلام اختصاراً
تركنتي اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيى مراراً
أسارقك اللحظ مستحيماً وازجر في الخيل مهري سراراً

فكان المنبئي بضطر الى الاعتذار :

كفرت مكارمك الباهرات ان كان ذلك مني اختياراً
ولكن حى الشعر الا القليل مم حى النوم الا غراراً

ولا يخفى ما في الاعتذار من إعانت النفس والتشديد عليها ، واذا علمنا ان الشاعر
قد تعرض له في بعض الحالات عوارض بعاف فيها حياته ، فبمتعصي عليه الكلام
أدركنا الا لم الذي كان يساور ابا الطيب في ازورار سيف الدولة عنه اذا ابطأ عليه
مدحه ، فكأن سيف الدولة يقول له : انا اشتهرت شعرك بالمال ، وقد أخذت مالي
فاعطني شعرك ، وكل هذا لا يخلو من منة واذى ، وكل هذا لا يخلو من ايلام وايحاج ،
وعلى الخصوص اذا كانت الروح الاليمية مثل روح ابي الطيب يجر كها اقل شيء ، ومن
الذي يحق له ان يلجأ الى المنة ، أسيف الدولة أم المنبئي ، أفكان سيف الدولة لولا المنبئي
الامكان من اولئك الملوك الذين ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق لهم الا القليل
من الذكر ، أفكان سيف الدولة لولا ابو الطيب يخلد هذا الخلود على شبيبة الإيمان ، وعلى
هرمه ، فالمنبئي لم يسيء الى سيف الدولة ، وانما سيف الدولة هو الذي بدأ بالاساءة ،
ومع هذا كله فقد كان في قلب ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة بعد الانصراف عنه .

(١) كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدح المنبئي شق عليه واكثر اذاه وأحضر
من لا خير فيه ولقد قدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يجب فلا يجيب ابو الطيب احداً
عن شيء فيزبد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتأذى ابو الطيب على ترك قول الشعر
و يلج سيف الدولة فيما كان يفعله الى ان زاد الأمر وكثر عليه فقال قصيدته التي اولها .
واحر قلباه من قلبه شيم ومن يحسمي وحالي عنده سقم

رمى وانقى رمي ومن دون ما انقى هوى كاسر كفى وقومي وأسهمي
نعم ترك المتنبي مجالاً للصحة فلم بغضب على سيف الدولة كل الغضب :
فراق ومن فارقت غير مذم وأُمُّ ومن يمت خيرٌ يمت
ولما خرج ابو الطيب من مصر الى العراق كتب اليه سيف الدولة بالعودة اليه وألح
عليه ، فلم يرض بذلك ابو الطيب ، وهذا يدل على أن اثر الجرح في نفسه بائع .

* * *

نعم غادر المتنبي سيف الدولة ولم ينقض كل ما في قلبه من محبة سيف الدولة ، وانما
اقتصر على الاشارة الى التنغيص والمن ، فلم تظهر مرارة لسانه الظهور كله ، ولكنه لما ترك
كافوراً عرض علينا هذه المرارة في أوضح معارضها ، فان كافوراً أساء الى بي الطيب من
اول اتصاله به ، فقد أظهر له التهمة اول يوم ولم يسمح له بان ينشده وهو فاعد ، ولم يسمح
له بان يجلس في مجلسه ، ووعد به بان يولييه فأخلف الميعاد ، وفي خاتمة الامر نوى ان يقتله ،
أفيلام ابو الطيب اذا تشفى من غيظه ، وعلى الخصوص بعد ان أضمره كافور في الولاية
ولم يذقه حلاوتها ، وانتم تعلمون كم كانت الولاية تشغل باله ، أفيلام ابو الطيب اذا آذاه
كافور فردّ اليه شيئاً من الاذى :

أميناً واخلاقاً وغدرآ وخسة وجبنآ أشخصاً لحث لي ام مخازيا
لم يتزبد المتنبي في هذا الهجوم ، رمى كافوراً بالكذب ، وقد كذب عليه ، ورماه
بالاخلاف وقد أخلف وعده ، ورماه بالغدر ، وقد غدر به فأراد قتله ورماه بالجبن وقد
كان يخافه اذا هو ولأه .

ليس من العجب بعد هذا كله ان تظهر مرارة لسان المتنبي في أهاجيه في كافور
ولست أنبهكم على موطن من مواطن هذه المرارة فارجعوا الى كل اهاجيه فيه فانها آلم
ما يكون من الشعور :

من علم الأسود الخصي مكرمة	أفومه البيض أم آباؤه الصيد
أم اذنه في بد النجاس دامية	أم قدره وهو بالفلسين مردود
اولى اللثام كويغفر بمندرة	في كل لؤم وبعض العذر لفنيذ
وذاك ان الفحول البيض عاجزة	عن الجليل فكيف الخصية السود

وما هي عطايا كافور الى جنب ما قاله المنبئي فيه ، وما هو حظ كافور من الخلود لولا شعر ابي الطيب الذي خلّده .

على ان ابا الطيب لم يكن قليل الوفاء ، فما عرّض بسيف الدولة الا لأن سيف الدولة كان يؤله في عطاياء ، وما أخش في هجاء كافور الا لأن كافوراً أراد قتله ، ولقد وفي ببعض العهود ، وفاء دل على ان الرجل كان صادق الود فقد توفي ابو شجاع فانك بمصر سنة خمسين وثلاث مائة فرثاه المنبئي بعد خروجه منها اي بعد انقطاع رغبته في كل عطية من عطايا فانك ، وتوفيت اخت سيف الدولة ببغداد ، وورد خبرها الى الكوفة فرثاها ابو الطيب وعزى اخاها بها سنة اثنتين وخمسين وثلاث مائة اي بعد مفارقتها سيف الدولة وبعد عزمه على ان لا يعود الى مجالس سيف الدولة ، وجاء في هذه القصيدة ابيات دلت على حسن وفائه :

طوى الجزيرة حتى جاء في خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

نبين لكم ان ابا الطيب كان لا بداري والغالب على الذين نقل مداراتهم التعظم والكبرياء وقد يكون تعظيمهم في بعض الاحيان خلقاً ظاهراً بطنه الناس خلقاً باطناً فقد نفش الظواهر فلا نتم عن حقائق البواطن ، ولست ادرى أكان ابو الطيب من أصحاب التعجيبية الظاهرة أم تمكنت الكبرياء من باطنه ، فكان معظم الظاهر والباطن ، فالذي دل عليه شعره انه اكثر من الفخر بنفسه في كل حال من احواله ، فلا يجب ان نشبهه باحد لأنه لا شبه له :

أعط عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوق ولا احد مثلي

وقد كان يشعر بعجبه ، ووضح سبب هذا التعجب :

ان اكن معجباً فحجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزبد

ولكن الذي يزعم في بعض الاحوال ان لفظة « انا » لا يكاد يخلو منها شعره ،

فلقد حار في الشيء الذي يشبه به نفسه ، فمرة هو صخرة الوادي والجوزاء :

انا صخرة الوادي اذا مازوحت واذا نطقت فاني الجوزاء

ومرة هو الاديب الذي لا ادب غيره :

انا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كسائي من به صم
وحينا هو المبدع لكل شيء .
انا السابق الهادي الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول
وحيناً هو السموري :

وما انا الا سموري حملته فزين معروضاً وراع مسودا
وما الدهر الامن رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
لقد احتلأ ابو الطيب عجباً ، واطن انه كان يقلق اهل عصره في بعض الاحيان
بهذا العجب ، فلو حدثنا محدث ، واخذ في كل فرصة يحدثنا عن نفسه و يردد لفظة «انا»
«انا» لما فرغ من احاديثه دون ان يغادر في قلوبنا شيئاً من الملل ، لقد يحتمل المرء اذا
نفر بنفسه مرة او مرتين ولكنه اذا جعل هجاء هذا الفخر فقد ثقل وطأته علينا ،
ولا شك في ان ابا الطيب قد ثقلت وطأته على اهل عصره في بعض الاحيان .
ان تعظمه ظاهر في شعره لا يكاد يخفيه فهو كثير التكلم على نفسه ، لا يبالي بما ينشئ
هذا التكلم من الآثار في النفوس ، ولم يقتصر على التغني بحمال عبقرته ولكنه جاوز
هذا التغني الى شيء من العجب والفخر ، وقد يكون هذا المذهب مدعاة الى الاضجار ، انا
نحب ان يذوق الناس محاسننا من تلقاء انفسهم اي من دون ان نذيقهم اياها ، انا نحب
ان يشعروا بهذه المحاسن من غير ان نشعرهم بها فاذا توخينا اظهارها والنبيه عليها والاشارة
اليها فقد يذهب شيء من آثارها في النفوس ، وربما عادت هذه المحاسن مساوي ،
فابو الطيب كان يحب ان يذيق الناس محاسنه بنفسه فهو لا يريد ان يدع لم مجالاً لدوقها
بانفسهم ، ولعل هذا السر في ثقل وطأته على الناس ، وقد يكون السبب في لجوئه
الى هذا المذهب ان الناس كانوا يبخسونه حقه ، ويطمسون من آثار حسناته فكان
يضطر الى التوبة بحسناته :

واذا خفيت على الغبي فعاذر ان لا تراني مقلة عمياء
نعم كان ابو الطيب متمعظاً في الظاهر وفي الباطن وكثيراً ما كان يجعل نفسه في
اماديج بمنزلة الملوك الذين كان يمدحهم :
انما التهنأت للاكفاء ولان يدني من البعداء

وانا منك لانيهني عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وربما كان حظي من مدح نفسه في بعض شعره أوفى من حظ الممدوحين ، وقد حملته تعظمه هذا على احتقار الناس ، وما ذهب عنكم امر هذا الاحتقار ، واقصد هنا بكافور نفسه في أماديجه فيه ، فأخاطب به ان يهزأ به بغير كافور فكان كثيراً ما ياجأ الى التصغير حتى قال فيه ابوالعلاء : ان الرجل كان مولعاً بالتصغير لا يفتنع من ذلك بحجة المغير والصحيح انه أولع بالتصغير فلم يكشف بتصغير الأحمق :
مقالي للأحمق يا حلیم

او بتصغير الخادم :

ونام الخو يدم عن ليلنا

او بتصغير الشاعر :

أفي كل يوم تحت ضبني شو بر

ولكنه صفّر اهل زمانه كلهم :

أذم الى هذا الزمان اهيله

دمشق : ١٩ نيسان سنة ١٩٣٠



المقارنة

بين المعري والحيام (١)

نقوم محاضرتي على المقارنة بين شخصيتي شعاعين حكيمين هما ابو العلاء المعري العربي وعمر الحيام الفارسي واكبر الظن ان لبس في الحاضرين الكرام من لا يعرف شيخ المعرة الكبير او يجهل ادبه ورأيه في الحياة ونظره في الكون ، اذ انه اشهر من نار على علم ، لذلك ارى من الضرورة ان اتكلم اولاً عن شخصية عمر الحيام . حتى اذا اطلعتم عليها وفهمتم مناحيها ، سهل علينا جميعنا الانتقال الى الامام برأي هذا الحكيم الفارسي ومعرفة اوجه الشبه بينهما وبين حكيمنا الجليل ابي العلاء . وقبل ان اخوض هذا البحث ارجب ان بينكم وجه اهتمامي الى هذا الموضوع وما هي الاسباب التي دفعني الى معالجته وما علاقة فتي عربي بالفارسية وما هي صلته بهذا المفكر الفارسي ؟ .

ولدت في كربلاء ، ولا اغالي اذا قلت انها المدينة التي يحج اليها في كل عام مائة الف فارسي ، لزيارة تربة سيدنا الحسين الشهيد واخوانه ، ولا يقنع هؤلاء الزوار وفيهم العالم والفني والامير بالمكوث فيها بضعة ايام ، بل فيهم من بقي فيها محبوراً اعواماً طويلة ، وفيهم من ينقل اليها تجارته واعماله ويتخذها له موطاً ثانياً . فبقية نضي هذا الاخللاط اصبح كل من ولد او سكن فيها يتكلم بالفارسية ويلبسها على اختلاف لهجاتها .

ولما فتحت عيني في كربلاء وترعرعت فيها ، واخذت اميز بين الخير والشر ، والنار والنور ، وجدت نفسي اتكلم بالفارسية العامية كباقي الفتيان ، بيد اني وجدت في بيت ابي عجوزاً شيطاء قد وهن عظمها ، وفشا المشيب في رأسها ، ووجدت كل من في البيت يضر لها حباً كثيراً ويحترمها احتراماً شديداً ، وكانت (زن اغا) او (بي بي جان) الامة النهائية في طول البيت وعرضه لا يعصي لها امر ، ولا ترد لها ارادة ، وقد نشأت على احترامها كسائر افراد العائلة غير اني كنت اجهل علاقة هذه الفارسية ببيت والدي ،

(١) محاضرة القاها في بهو المجمع العلمي العربي الاستاذ السيد احمد حامد الصراف

من ادياء العراق .

وقد قصت عليّ امي امرها فعملت انها كانت زوجة غني فارسي ، كان قد هجر وطنه شيراز
 وشد الرحال الى كربلاء زائراً فطاب له العيش فيها ، فأصبح مجاوراً ، وقد توثقت بينه
 وبين جدي اراسر المحبة والوداد ، فساكننا بتمساديان وبنزاوران ، غير ان نكد طالعهم
 جره الى استعمال الافيون فاستنزفت امواله فأنزل من عرش الثراء واجلس على بساط
 الفقر ، فهجره خدامه وتركته حاشيته ، وامسح مشقلاً بالديون ، واخيراً صرعه هذه
 الآفة وسلبته روحه ، وبقيت زوجته وحيدة لا معين لها ولا نصير ، الى ان طعنها الفقر
 ووطئها الحزن فوقعت مريضة . ولما بلغ جدي ما جرى لها هنزته الحمية وحركته المروءة
 فنقلها الى بيته وجاء لها بالاطباء فعالجوها حتى شفيت وقوي جسدها ، فجعلها مربية
 لاولاده وبناته ، وكان يحترمها ويحسن معاملتها وبوصي بها خيراً . وكانت (زن اغا)
 احدى حفيدات (فتح علي شاه) ملك فارس القاجاري وهي على جانب عظيم من الفضل
 والادب والاخلاق وكانت لبينة تجيد الانشاء وتنظم القريض في الفارسية ، وتسطور
 اروع الشعر واحسنه في الفارسية وكانت تلم بنكات الشعراء وتحفظ الشيء الكثير من
 الامثال الفارسية والعربية ، وقد تولت (زن اغا) تعليم امي واخواتها ، ادركتها ولم يبق
 فيهما غير ناب واحد ، وكنا اذا اجتمعنا عندها في ليالي الشتاء حدثتنا حديثاً لذيقاً عن
 نكات الشعراء والادباء حتى يتغشانا النعاس فتصرفنا الى مضاجعنا واحداً اثر واحد .
 وفي احدى ليالي الشتاء من سنة ١٩١٨ اجتمعنا عند (زن اغا) وكانت تدير علينا
 اكواب الشاي وقد امسكت يدها غليونها الطويل واستعدت لنقص علينا مما خزنته
 في صدرها .

قالت : احدثكم الليلة عن احد القلندرية واسمه عمر الخيلسام وكان كبيراً مدمناً
 للخمرة مفتوناً بالمشعة كافئان ابي نواس بها :
 حمل ذات يوم ابريق خمرته وصعد الجبل ليحسو كؤوسها وكانت تصعبه ابنته وبناتها
 كانت يمتنع نفسه بلذيق طعمها هبت ريح شديدة فخطمت ابريق مدامه وانسكب ما في
 الابريق على الارض فغضب وقال مخاطباً الرب بهذه الرباعية :

ابريق مي مراشكسي ربي برمن درعيش رايسني ربي
 برخاك فكندي مي كلكون سرا خاكم بدهن مكرنومسي ربي

اي - يا آهي حنمت ابريق نخري واوصدت باب الطرب في وجهي وقد سكبت
على الارض خمرني اللازوردية تراب بفحي فهل انت مثلي سكران يا آهي .
ولما تم انشاد هذه الرباعية اسود وجهه حالاً فقالت له ابنته يا بني لقد اسود وجهك
فطالب المرأة ونظر الى وجهه فالفاه اسود فاحمماً فعلم ان الله قد غضب عليه فخطب الله
مستغفراً بهذه الرباعية .

ناكرده كنه درجهان كبت بكو وانكس كه كنه نكر دجون ز بست بكو
من بد كنم وتوبه مكافات ده بس فرق ميان من وتوجيست بكو
اي - يا آهي قل لي من الذي لم يرتكب خطأ في هذه الحياة وكيف عاش انسان ولم
يرتكب خطيئة ؟ انا اعمل سوءاً وانت تقابلني بسوء مثله اذاً اي فرق بيني وبينك يا آهي .
وبعد انشاد هذه الرباعية عاد وجهه الى ما كان عليه .

بهذا حدثتني (زن اغا) عن عمر الخيام قبل اثني عشر عاماً ، وقد بعثت هذه
الاسطورة اللذيذة في نفسي رغبة الاطلاع على شعره ومعرفة شخصه ، فطلبت اليها ان
تدرسني ديوانه فرفضت طلبي زاعمة ان في شعره ما لا يتفق مع الشرع فالحجت عايتها
الحاحاً شديداً فاخذت تدرسني رباعياته . واذا بي امام شاعر حكيم وفلكي شهير وفيلسوف
مفكر له نظرة في الحياة غير هذه النظرات ونأمل في الكون غير هذه التأملات ، وانه لم
يكن بالفيلسوف السكبر وانما كان رجلاً فذاً منقطع الظير وانه بعد بلامدافع من حكماء
المسلمين المفكرين .

اما وقد اطلعت الآن على الاسباب التي دفعتني الى البحث في ادب الخيام حق لكم
ان تستفسروا مني سائلين من هو عمر الخيام ، وفي اي عصر عاش ، وما هو رأيه في
الحياة وما هو اثر ادبه ورأيه في الفرد وفي المجتمع ؟ :

في سنة ١٩٢٧ نشر العالم الكبير الدكتور (ميلار) مقالاً في جريدة (المورن)
وست) ادعى فيها ان شخصية عمر الخيام محاطة بغلالة من غموض واهام . وقد نسبت
حوله اساطير غامضة تدعو الى الشك في وجوده ، وجاء ببراهين واهية واعنة انكر فيها
عمر الخيام وزعم انه كان شخصاً . وهو ما قد تخيلناه ادمغة الناس تخيلاً فأنبرى له اذ ذ

العالم الجليل القدر (السر دهبسون روس) مدير مدرسة الدراسات الشرقية في لندن وفيد اقواله بدلائل لنحصر في خمس نقاط ، ولما كنت قد قضيت بضعة اعوام في درس حياة هذا الحكيم وادبه شعرت في نفسي بقوة الرد عليه فرددت عليه بمقال اثبت فيه شخصية المجهوث عنه بثلاث عشرة وثيقة تاريخية لا غبار عليها ، واذ كان الذي يههنا انما هو الاطلاع على ترجمته لذلك اكنفي بسرد الوثائق الهامة منها :

ان من اقدم الوثائق التاريخية التي ورد فيها اخبار عن عمر الخيام وحوادثه كتاب (جواهر مقالة) مؤلفه احمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي الذي تلمذ لعمر الخيام وزار قبره في سنة ٥٣٠ هـ فقد قيل له ان استاذہ توفي منذ اربع سنوات . والنظامي هذا ذكر في المقالة الثالثة التي خصها باخبار الفلكيين ما ترويه : في سنة ٥٠٦ هـ هجرة في مدينة (بلخ) وفي صرح سمراي (امير بوسعد جره) حظيت بمقابلة الاستاذ عمر الخيام والامام مظفر اسفزاری وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق اي (عمر الخيام) يقول اني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسيمات الشمال وينشر عليه الزهر والورد — وقد اخذني العجب من قوله لاني كنت اعتقد ان خياماً لا يتكلم الا عن روية . وفي سنة ٥٣٠ هـ هجرة بلغني ان التراب قد اخفي ذلك العظيم منذ اربع سنوات وترك العالم السفلي تنياً . واذ كان له حق التعليم علي ذهبت الى زيارة قبره يوم الجمعة ومعي رجل يدلي علي قبره فأخذني الى مزار حيرة والثفت الى اليسار فالتفت قبر عمر الخيام بجانب جدار حديقة مهجورة وقد نبت حول القبر اشجار المشمش وكان منوراً وكان الزهر يتساقط علي قبره حتى توارى قبره . وقد ذكرت ما قاله لي في بلخ فيكيت ولم اجد في هذا العالم نظيره اسكنه الله تبارك وتعالى جناته بمنه وكرمه . وبين هؤلاء الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود : وقد ذكر عمر الخيام في كتابه (نزهة الارواح وروضة الافراح) الذي الفه بين سنة ٥٨٦ — ٦١١ .

عمر الخيام نيسابوري الآثار والميلاد كان تلو الي علي (ابن سينا) في معرفة اجزاء علوم الحكمة الا انه كان مي الخلق ضيق العطن تأمل كتاباً باصهار سبع مرات وحفظه وعاد الي نيسابور فأملأه فقبول ينسخته الاصلية فلم يوجد بينها تفاوت . وله ضنة بالتصنيف

والتعليم وله مختصر في الطبيعيات . رسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ .

ودخل عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير على الخبير سقطنا فسئل عمر عن ذلك فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهم وذكر الشواذ وعلمها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي كثر الله في العلماء مثلك اجعلني من ادمه (١) اهلك وارض عني فاني ما ظننت احداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلاً عن واحد من الحكماء . واما اجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدة . ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من اجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه متشابه الاجزاء فطول الخيام الكلام وابتدأ من الحركة من مقولة كذا وضمن بالغوض في محل النزاع وكان هذا من دأب ذلك الشيخ المطاع حتى اذنت الظفر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل وقام .

وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء والخافان شمس الملوك بخاري يعظمه غاية التعظيم ويجلس الامام معه على سريره .

ومن ذكره من مؤرخي العرب الوزير جمال الدين ابو الحسن علي ابن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ قال :

امام خراسان وعلامة الزمان بعلم اليونان ويبحث على طلب الواحد الديان بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الانسانية وبأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية ، وقد وقف متأخراً الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقةتهم ونفذوا بها في مجالسهم وخلواتهم وبواطنها حياة للشرع الواسع وبجامع للأغلال جوامع ، ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما أسرته من مكنونه خشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه وحجج متافاة لا ثقية وابدى اسراراً من السرار غير ثقية ولما حصل ببغداد سعى اليه اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم لا سد النديم ورجع من حجه الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ويكتم اسراره ولا بد ان تبدوا

وكان عديم القرنين في علم النجوم والحكمة وبه يضرب المثل في هذه الانواع لورزق العصمة وله شعر طائر يظهر خفياته على خوافيه وتكدر عرق قصده كدر خافيه . فنه :

إذا رخصت نفسي بميسور بلغية	يحصلها بالكد كفي وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلها	فكن يازماني موعدي او موعدي
اليس قضى الافلاك من دورها بان	تعيد الي نفس جميع المساعدي
فيا نفس صبراً عن مقيلك انما	تخر ذراعها بانقضاء القواعد
ولي فوق هام النيرين منازل	وفوق مناط الفرقدين مصاعدي
مق ما دنت دنياك كانت بعيدة	فواعجي من ذا القريب المباعدي
إذا كانت محصول الحياة منية	فسيان حالاً كل ساع وقاعد

جاء في (ج ٤ ص ٦١) من تاريخ روضة الصفا للتوخي الفارسي الشهير خواند مير نقلاً عن وصايا الوزير نظام الملك ما ملخصه :

قرأت اربع سنين على الاستاذ موفق الدين النيسابوري فصادت عنده تلميذين ذكبين عمر الخيام وحسن الصباح ، فصادقتهما وكنا بعد الدرس نتجمع لتكراره والمذاكرة فيه . وعندما اجتمعنا يوماً لمثل ذلك قال لنا حسن الصباح لقد اشتهر انت من يقرأ القرآن او الحديث على الاستاذ موفق الدين يصبح ذا حظ عظيم ومنزلة سامية فاذا كان احداً مصداقاً لذلك فما الذي يجب عليه لصدقيه فقلت له فما رأيك انت قال ان يشرك كل منا صدقيه فيما يناله من النفع فاتفقنا على ما رآه .

وبعد حين من الدهر جاءني عمر الخيام على عهد السلطان البارسلان السلجوقي فقابلته بمرشد الحفادة وقلت له الآن وجب علي ان ابين درجة علمك وفضلك للسلطان واطلب منه ان يملك ملازماً مجلسه حتى تكون شر يمين في الجاه عنده كما كنا شر يمين في الدرس لدى موفق الدين ، فقال اشكر لك حسن ظنك بي ، ولكن افضل ان تأمرني بشيء اصليحه شأنني كي اتمكن من ممارسة العلوم وحراولة الفنون لان ملازمتي لمجلس السلطان تمنعني عما اتوخاه ، فجعلت له راتباً سنوياً قدره ١٢٠٠ ذهباً يتقاضاها من املاك نيسابور .

وبعد برهة من الزمن قدم عمر الخيام مرو على عهد السلطان ملك شاه السلجوقي وكان قد اشتهر في العلوم شهرة فائقة ولا سيما في الرياضيات وعلم الفلك فنال حظوة عظيمة

عنده وحاز منزلة كبار العلماء والحكام ، ولم يجد نظام الملك في حسن الصباح خيراً لانه اراد مزاحمته في الديوان .

ولقد علمت الآن ان عمر الحيام بنسبوري المنشأ وانه عاش في اكناف الدولة السلجوقية وعاصر ملكشاه البارسلان وقد نلتذ في عنفوان شبابه بموفق الدين النيسابوري مع نظام الملك والحسن الصباح في مدرسة واحدة وانه زار بغداد وتجاوز مع الامام الغزالي في قضايا شرعية وفلكية وقد اتني عليه الامام الغزالي وان له تأليف قيمة في العلوم الشائعة في عصره وانه قد توفي في اوائل القرن السادس الهجري . بقي علينا ان نفهم ماهي الافكار التي تجول في خاطر الحكيم وما هي تلك النظرة التي كان يرسلها الى الحياة وما هي فلسفة هذا الرجل الذي ملأت شهرته ارجاء العالم واستموى شعره الناس .

ارى ان انلو على مسامعكم طرفاً من شعره ليتوضح لكم جلياً رأيه الصريح قال :
زان بيش كه غمهاش شديتون آرند فرماي كه ناباده كلوكوت آرند
توز رنه اي غافل نادان كه ترا در خاك نهند و باز بيرون آرند
قبل ان نهاجك همومك مرهم ان ياتوك بدماء وردية . انت لست ذهباً ايها الجاهل
الغرايد فنوك في التراب ثم يخرجوك .

اي آنكه نتيجه جهار وهفتي در هفت وجهار دائم اندر نفتي
مي خور كه هزار بار بيش كفتي باز آمدها نيست جور فتي رفتي
يا من هو نتيجة اربعة عناصر وسبع سموات حتى م انت لئالم بالتفكر فيها اشرب
الخمره فقد قلت لك الف مرة مالك من اوبة فاذا ذهبت ذهبت .

جام ومي وساقى بر لب كشت بهترز بهشتي كه خير بودش دشت
مشنو سخن بهشت و دوزخ از كس كه رفته بدوزخ و كه آمد ز بهشت
ان خيراً من الفردوس الذي وعده كاس وخمره وساق في جنب روضة . لا تسمعن
من احد حديث الجنة والجحيم من ذا الذي ذهب الي الجحيم ومن ذا الذي جاء من الجنة .
جون حاصل آدمي درين جاي دودر جز در دل و دودان جان نيست دكر
خزم دل آنكه بك نفس زنده بنود وآسوده كسي كه خود نژاد از مادر

ان حاصل الانسان من هذه الدار ذات البابين الالم وزهوق الروح . فنهبتا لمن يعيش ساعة وطوبى لمن لم يولد من امه .

روزي که دومهلتست میخوری ناب کاین عمر دوروزه برتکرده درباب
دانی که جهات رویخوابی دارد تومنیز شب وروزی باش خراب
اشر ب الخمره الصافية مرتین فی کل يوم . فان هذا العمر القلیل لا يعود الیک
مرة اخرى مادمت تعلم ان مصیر الیکون الی الخراب . انت ابضاً کن خراباً لیلاً ونهاراً .
از حادثه زمان آبنده مبرس وزهرجه رسد جونست باینده مبرس
این بکدمه انقدر اغنیت میدان از رفته میندیش وزآبنده مبرس
لا تسئل عن حادث الزمان الآتی وعن کل ما یصیبک منه لانه لا بدوم اغتئم الساعة
التي انت فیها ولا تفکر فیما مضی ولا تحفل بما بآتی .

اقد بان کم رأي عمر الخيام فی الحیاة عربان صریحاً فان نظرة واحدة الی المعانی
التي تضمنتها هذه الرباعیات تکفی لان توضح للباحث ان الطریق الذي یوصینا الخيام
ان نسلکة هو طریق مظلم یضل الانسان فیہ ولا یهتدی الی السبیل السوي فان
هذه الفلسفة السلبية التي بمقتضاها یجرد الانسان عن کل شیء سوى الساعة التي یعیش
فیها فلسفة هدم وتخریب لا فلسفة بناء وتممیر لانها فلسفة ترمی الی هدم امسنا الذي
نحن ابناؤه والذي نستمد منه عناصر القوة فی يومنا لنعیش فی غد عبثة رغدة .

امس والیوم وغد سلسلة ذات حلقات ثلاث لا ننفصم عراها ولا ننفک احداها عن
الاخری ولا یمكن تصور تجزئتها لانها الحیاة والحیاة لا تُجزأ لان عناصر الحیاة قوة
واحدة فی شکل مادة واحدة بان اختلاف مظاهرها وحياتها اليومية حافلة بالاحلام
والاماني والآلام وغيرها مما یختلج فی الصدر فی کل لحظة ویرد علی الخاطر فی کل
برهة والانسان لا یستطیع ان یغلی عن امانیه وآلامه واحلامه وخیالاته واوهامه اذ
لا مندوحة له من هذه السلسلة التي لا ننفک لتجدد فی کل يوم بل فی کل لحظة ، علی
ان هذه الانفعالات كلها ولیدة الحوادث وکل حادث یستجیل الی ماض بمجرد وقوعه
وهذه المشاكل او الانفعالات النفسية تحتاج الی متسم من الوقت لحلها وهذا الوقت هو
الغد فأمس والیوم وغد حلقات الحیاة الوجود وكلها سلاسل وقيود لا یمكن التملص منها .

إذا فما هو السر الذي جعل الناس يتهافون ويتلذذون بآرائه وكتابه .
 لقد اراد عمر الخيام ان يحل المعضلة العظيمة التي لم يستطع ان يحلها احد قبله ، اراد
 ان يفهم الحياة ففشل ولما فشل تشاءم ولما تشاءم اخذ يصور الحياة بأشع صورة وزعم انها
 ملأى بالالوجاع والاتراح منعمة بالأذى ، لذلك حث على عدم الاهتمام بها وادعى بطلب
 اللذة اغتناماً لهذه الفرصة فهذه الفلسفة السلبية تلائم ذوق الفرد خصوصاً البائس المتألم ،
 ورأى الخيام في الحياة يتلخص فيما يلي :

ما دام ليس في امكاننا ايقاف دورة الفلك وما دمنا لا نعرف من اين جئنا والى اين
 نذهب وما دمنا مسيرين لا مخيرين وما دام العمر قصيراً والحياة اذى فيجب قتل هذا
 الوقت المؤلم القصير بالثمرة وعدم الاهتمام بالتقاليد .
 هذه كلمة موجزة في فلسفة عمر الخيام ، والآن نعود الى اصل الموضوع وهو المقارنة
 بين المعري والخيام .

كنت في اثناء درسي لرباعيات الخيام اشعر بوجود نسب متين وقاربة فكرية بين
 هاتين الشخصيتين وكنت كلما اعنت النظر في فلسفة الخيام ازدادت عقيدة بوجود شبه
 عظيم بين هذين الفذيين ، ولو ان توأمين نشأ في حضن أب وأم وتعلما في مدرسة واحدة
 وتربها في بيئة واحدة وطراً عليهما من شؤون الحياة في الصغر والكبر ما يكونان به
 شريكين فيه فتاثلت اخلاقهما وطباعهما وتقاربت آراؤهما ونظراتهما في الكون ، لقلنا
 ان المعري والخيام اخوان شقيقان وفرعان من غصن واحد فكان المشيئة الالهية قد
 قدتها من اديم واحد وجبلت طبيعتها في آنية واحدة وفي آت واحد وحبتهما طبعين
 وفكرين متقاربين متشابهين .

ان من غريب الاتفاق ان يكون الحكميان متماثلين في الاخلاق فكلاهما كان منقبض
 النفس ضيق الصدر منزوياً عن الناس زاهداً فيما بأيديهم مافقاً لم مستهزأ بهم مستخفياً
 بعقائدهم ومبادئهم وكلاهما مبغض للدنيا متطال لامور غامضة أجل شأناً واعظم قدراً
 من حطامها وكلاهما متطلع تائق الى اسرار الحياة معني بها ، وكلاهما ابي النفس صادق

القول مطلق الرأي جري على البوح بمذهبه ، الا فترات كانا كلاهما يراعي فيها خواطر الناس خشية الاذى والضرر وكلاهما فقير لم يملك شيئاً من حطام الدنيا ، ولو ارادا لنالا وفراً وذهباً وفضة ، وكلاهما عاش عزباً لم يتزوج وكلاهما نشأ في عصر حافل بالعلوم والمعارف فائض بالآراء الفلسفية ، اذ في عصرهما ظهر مذهب الاسماعيلية والباطنية وفي عصرهما اجتمع اخوان الصفاء خفية وابرزوا رسائلهم الشهيرة . واقول الفيلسوفين على تقارب في العلوم والمعارف . اما تأليفها فقليلة ايضاً واما السياسة في زمانها فتشابهة فقد كانت نار الفتنة مشتعلة في سورية في عصر المعري . واما فارس فقد كانت رحي الحرب فيها دائرة كل المدة التي عاش فيها الخيام فانه نشأ في اكشاف الدولة السلجوقية التركية التي قامت مقام لدولة الغزنوية ولم تقم تلك الدولة الا بالسيف وكان الخيام يشهد ذلك وقد اتسع سلطان هذه الحكومة في ايام ملكشاه ٤٦٥-٤٨٥ الذي كان يجل عمر الخيام اجلاً عظيماً حتى عهد اليه بناء الرصد وترتيب الزيج . وفي عهده اسس زميله وشريكه في الدرس (حسن الصباح) مذهب الباطنية وفي ايامه ارتكب الباطنية المنكرات والموبقات وفيها اغتيل زميله وشريكه الآخر (نظام الملك) بطعنة باطني . تضاربت آراء الباحثين في السنة التي ولد فيها عمر الخيام كما تشعبت آراؤهم في السنة التي توفي بها فال مؤلفون الغربيون يرجحون ان وفاته كانت سنة ٥١٧ هجرية وهو القول المشهور وقد ذكرت اقوال عديدة في وفاته وكلها بين سنة ٥٠٨ - ٥٣٠ وعمر كل حال فانه توفي في اوائل القرن السادس للهجرة وذكر عن النظام - وهو تلميذ خيام - انه زار قبره في نيسابور سنة ٥٣٠ وقيل له ان الخيام توفي منذ سنوات .

وذكر البيهقي في كتابه حكماء الاسلام وفاته فقال : حكى لي خشنه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل في يبحث الآهيات من الشفاء فلما وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقام وصلى واوصى ولم يأكل ولم يشرب فلما صلى العشاء الآخرة سجد وكان يقول في سجوده اللهم تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي وان معرفتي اباك وسيلاتي اليك ومات رحمه الله تعالى . اما ابو العلاء المعري فقد اجمعوا على انه ولد في سنة ٣٦٣ هجرية وتوفي عاشر ربيع الاول من سنة ٤٤٩ . فعلى هذا يكون المعري اقدم من الخيام بما يزيد على نصف

قرن وهي مدة كافية لنشر كتب أبي العلاء ورسائله ودواوينه في اقطار العالم الاسلامي ولا يبعد ان يكون الخيام افنئى كتب أبي العلاء في طريقه الى الحجاز واطلع عليها . على اننا لا نريد ان اتهم الخيام ولا نغض من قدره ولا نقدح في علمه وفضله وعبقريته انما نريد ان نبحث عن هذه الآراء المتشابهة التي اشترك فيها الحكميان ، فالمعري متقدم على زميله وعربي بحث لا يعرف الا اللغة العربية والخيام متأخر فارسي مستعرب يعرف اللغتين وله شعران عربي وفارسي .

فهل الخيام عيال على المعري في مذهبه الفلسفي والشعري ينبغي ان نذكر أمثلة بهذا الخصوص .

« اتهامها بالزندقة »

كان كل واحد من الشيخين متهاً بضعف الايمان والمروق عن الشريعة وموصوماً بالتعبير الذي كان شائعاً في ذلك العصر وهو (الزندقة) ذلك الجرم الذي ما الصق باحد الا كان جزاؤه الموت وكانت فرائص الاحرار ترتعد خوفاً منها وقد ذهب بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس والحلاج والسهوردي وغيرهم ضحايا هذه التهمة .

اما ابو العلاء فقد ذكروا انه دخل عليه ذات يوم رجل من قراء المعرة يعرف بابي القاسم فطلب منه بعض الناس ان يقرأ بعضاً من الآي الكريمة فقراً (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واصل سبيلاً) يريد بذلك إهانة الشيخ ، وقد تألم ابو العلاء من ذلك الوقع فهجاء ببنتين .

ودخل عليه الوزير المشهور بالمنازي فسأله ما هذا الذي يرويه عنك الناس ؟ قال : قوم حسدوني فكذبوا علي وقد تركت لم الدنيا قال المنازي والآخرة فقال ابو العلاء (والآخرة ؟) ثم اطرق ولم يكلمي حتى قُت عنه .

وزاره بعض القضاة فقال له ابو العلاء لم اهج احداً . قال صدقت الا الانبياء قال فتغير لونه . وقد ابتلي عمر الخيام بما ابتلي به صاحبه فقد وصمه (شيخ نجم الدين الرازي) في كتابه (مرصاد العباد) الذي ألفه سنة ٦٢١ هجرية بأنه ممن يدين بدين الفلاسفة والدهريين الطبيعيين وكان القائلون بهذا المذهب كفاراً ضلالاً في نظر الناس وقد احتج نجم الدين على ضلاله وزندقته باحدى رباعياته وقد تقدم ذكرها في ترجمته .

وعما يؤيد ظن الناس به ظناً سبئاً واتهامهم له بالزندقة قول (القفطي) (ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما اسره من مكذونه خشي على دمه وامسك من لسان قلمه وحج متافاة لا نقيية وابدى اسراراً من السرار غير نقيية ... الخ) وقول القفطي فيسه يدل على ان الناس كانوا بناوئونه وبنواوشونه بالكلام القارص البذي ولا اشك في ان الذين كانوا يتهمون عليه و يغرون العوام بايذائه هم رجال الدين وهذا شأنهم في كل عصر مع الاحرار والعطاء الا ان الخيام لم يقصر في رد كيدهم في نجرهم واظهار ما يبطنونه من المكر واخبت فقد قذعهم في كثير من ربايعانه فمن ذلك قوله في المفاي واظنه كان من مناوئيه :

اي مفتي شهر ازتوير كار تريم بالين همه مستي زتوهشيار تريم
ماخون رزان خوريم وتوخون كسان انصاف بده كدام خوونخوار تريم
يا مفتي المدينة انا احسن منك عملاً ومع كثرة سكرنا فانا اصمى منك انا اشرب
دم العنقود وانت تشرب دم الناس فانصف فأينا شراب الدماء .

« اعتقادهما بالجبر »

كان كلا الحكيمين معقداً بمذهب الجبر دائماً به . فقد نص ابو العلاء المعري في مقدمة (اللزوميات) على انه لم يؤلف هذا الكتاب مختاراً وانما ألفه بقضاء خفي لا يعرف كنهه وحقيقته . وقد ذكر الجبر في اللزوميات صراحة كثيرة مثبتاً اياه ومناضلاً عنه فمن قوله فيه :

خرجت الى ذي الدار كرهاً ورحتني الى غيرها بالرغم والله شاهد
فهل انا فيما بين ذلك مجبور على عمل ام مستطيع فجاهد

...

ما باختيارى ميلادي ولا هرجي ولا حياقي فهل لي بعد تحبير

...

جئنا على كره ونرحل رُغماً ولعلنا ما بين ذلك نجبر

...

وردت الى دار المصائب مجبراً وصحبت فيها لبس يعجبني النقل

...

ولم نخلل بدنيانا اختياراً ولكن جاء ذلك على اضطرار
 اما عمر الخيام فكان رأيه صريحاً في الجبر بصورة لا يحتمل الشك ولا التأويل
 فقد مثل في عصره عن ثلاث مسائل (احداها) كيف صدر ملازم التضاد والشر
 عن الواجب مع البت بانه عز وجل يتعالي عن ان يكون مصدر شر او ظلم وجور ومع
 القول بامتناع تعدد الواجب . (الثانية) اي الفريقين اقرب الى الصواب وقوله اشبه
 بالتحقيق : الجبرية القائلون بالجبر ونفي الاختيار عن الممكن ام القدرية الناسبون الى
 العبد خلق افعاله . (الثالثة) ان قوماً يقولون بان البقاء من صفات المعاني اي انه صفة
 زائدة على ذات الباقي في الخارج فكيف يصح قولهم وما سبيل المناقشة معهم .
 فاجاب عمر الخيام بكلام طويل حلل فيه هذه الابحاث تحليلاً دقيقاً وكان جوابه
 على السؤال الثالث صريحاً في الجبر فقد قال — واما سؤاله عن اي الفريقين اقرب
 الى الصواب فلعل الجبري اقرب الى الحق في بادئ الرأي وظاهر النظر من غير ان يتلجج
 في هذيانه وينغلغل في خرافاته فانه حينئذ يبعد عن الحق جداً وما يؤيد ذلك قوله في
 احدي ربايعياته .

آورد باضطرارم اول وجودم جز حيرتم از جهان جيزي نفزود
 رفتيم با كراه وندانيم چه بود زين آمدن وما ندن ورفتن مقصود
 جاء بي مضطراً الى الوجود ولم ازدد غير الحيرة في هذه الحياة . ذهبنا مكرهين ولم
 نعلم المقصود من مجيئنا وبقائنا وذهابنا .

بر هر كدم هزار جاد ام نهی كوبي كه بكيرمت اكر كام نهی
 بك ذره ز حكمتو جهان خالي نيست حكمت نو كني وعاصيم نام نهی
 نضم الاشراك يا آهي في الف مكان من سبيلي ونقول انك اذا وطأتها فانما تهلكك
 لا تخلص ذرة في العالم من حكمك انت تحكم وتقدر علي وانت تسميني بالعاصي .
 « البعث بعد الموت »

كان قدماء المصر بين يعتقدون بعودة الروح الى الجسد في الدنيا ، وكان فلاسفة
 اليونان والآلهيون ولا سيما اتباع افلاطون يعتقدون بخلود الروح الا انهم ما كانوا يؤمنون
 ببعث الارواح كما نصت عليه الشرائع المنزلة وكانوا ينكرون حشر الاجساد التي لا تلبث

ان يتطرق اليها البلى بعد دفنها ، وزعموا ان الروح لنقل بعد خروجها من الجسد الى عالم ملكوتي قدسي عقلي وهناك تحي حياة إما شقية وامام سعيدة لقاء ما أنه في الحياة من آثام أو أعمال مبرورة . اما ارباب الديانات فرأيهم صريح في البعث والمسلون يعتقدون بخلود الارواح وحشر الاجساد ومن ينكر البعث بعد الموت يكفر وعقابه القتل ، والقرآن طافح بالآيات التي يستدل بها المسلمون على البعث والمفسرين من علماء المسلمين اقوال كثيرة وآراء عجيبة في هذا البحث .

وقد انعمنا النظر في رباعيات عمر الخيام فوجدناه نارة منكراً للبعث انكاراً صريحاً مسفهاً رأيي الزاعمين حشر الاجساد ومستهمزاً باقوالهم وطوراً معترفاً به مما يصعب على الباحث ان يصدر حكماً قطعياً ورأياً نهائياً بالسلب او الايجاب وقد لمس خيام هذا الموضوع استطراداً وذلك اثناء بحثه عن الخمرة وحشه الناس على شربها فن قوله :

زآن بیش که غمهاست شبخون آرند فرماید که تاباده کلکون آرند

نوزرنه ای غافل نادان که ترا در خاک نهند و باز بیرون آرند

صاح قبل ان تهجم عليك غمومك على غرة مرلياً نوك بالخمرة اللازوردية . ايها

الغافل الجاهل انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى .

ما لعبتكم كانم و فلك لعبتكم باز ازروي حقيقي نه ازروي مجاز

بازيمه كنان بدبير نطم وجود رفتيم بصندوق عدم بك بك باز

نحن الالعب اطفال والفلك هو الملاعب بنا وذلك امر حقيقي غير مجازي لقد

لعبنا مدة في ساحة الوجود ثم ذهبنا الى صندوق العدم واحداً اثر واحد .

ف قوله (انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى ، وقد ذهبنا

الى صندوق العدم واحداً بعد واحد) دليل على انه لم يكن معقداً بالحشر والشكر كما

يعتقد به المسلمون غير اننا نراه في موضوع آخر يترجم ما نقضه .

از خالق كرد كار و زرب رحيم نو ميد نيم به جرم وعصيان عظيم

كمرست و خراب مرده باشم امروز فردا بخشد به استخوانهاي رميم

لست قانطاً من رحمة الله الرحيم لجرمي وعصيان العظيمين وان انا مت اليوم سكران فانه

سيغفر (غداً) رميم عظامي .

وكلمة (غدا) هنا لا تفسر الا بيوم القيامة التي يكون بها البعث والحساب والعقاب والعذاب .

وعمر الخيام بنقضه وابرامه يشبه ابوالعلاء المعري فان الثاني اضطرب رأيه في البعث اضطراباً عظيماً فكان تارة مؤمناً به وتارة منكراً له فن قوله الذي أثبت فيه البعث :
 واني لأرجو منه يوم تجاوز فيأمرني ذات اليمين الى اليسرى
 اذا راكب نالت به الشأ أو ناقة فما أيتني الا الظوالم والحسرى
 وان أعف بعد الموت مما يريني فاحظي الادنى ولا بدني الحسرى
 ومن قوله الذي انكر فيه البعث انكاراً صريحاً :
 ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
 تحطحننا الايام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
 وقوله :

اما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح اني تسلك
 على انني ارناي ان كلا الحكيمين كان منكراً للبعث غير معتقداً ببحر الانجسام وخلود
 الأرواح واما الابطال التي نظمها الشيخان في اثبات البعث فقد نظماها لثقة وخوفاً من
 الناس وسخط الجمهور عليهما (والشك) ولارباب أثبت في الانسان من اليقين ولا سيما في
 قضية هي أقرب الى الخيال الشعري من الحقيقة اليه .
 وكان ابوالعلاء المعري يرى النقية ومدارة الناس ويحتاط في اظهار آرائه ويعول
 على المجاز كثيراً اذ كان يخشى الاذى والاضطهاد ، وفي لزومياته شعر كثير نستدل به
 على ذلك فمن قوله :

اصدق الى ان ترى في الصدق مهلكة وبعد ذلك فاكذب فاعداً وقم
 وقوله :

فاصمت فان كلام المرء يهلكه وان نطقت فافصاح وايجاز
 وقوله :

اهوى الحياة وحسبي من معانيها افي أعيش بتوحيه وتدليس
 اكتم حديثك لا يشعر به احد من رهط جبريل او من رهط ابليس

فهذه الابیات تدل على ان ابا العلاء كان سيئ الظن بالناس كثير الحذر منهم وقد اتخذ (النقية) جنة له .

وقد حذا عمر الخيام حذو ابي العلاء المعري وسلك طريقه في دفع الاذى والضرر عن نفسه فقد ذكر « الوزیر جمال الدين ابي الحسين علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي » مانصه : « ولما قدح اهل زمانه في دينه وأظهروا مأمراً من مكنونه خشي على دمه وأمسك من عنان اسائه وقلة وحج متافاة لائقية وابدى أمراراً من السرار غير نقية » .
ومما يؤيد قول القفطي الصراحة البارزة في بعض رباعياته التي يصح الاستدلال بها على حذره وتكتمه وعدم اثناء ما يكتنه ضميره خوف البُله من صغار العقول وضعفاء الحلو .

باهر بد ونيك راز نوانم كفت كوته سختم دراز نوانم كفت

حالي دارم كه شرح نوانم داد رازي دارم كه باز نوانم كفت

لا أستطيع ان ابوح بسرّي لكل طيب وخبيث انا قصير الكلام لا أستطيع ان أطيعه . لي حال لا أستطيع ان أشرحها ومرة لا أستطيع ان اقله .

ولاسيما ان عصر الخيام كان عصر طائفاً بجبهات من المتصوفة العمي الابصار والقلوب وزمر عظمية من المتزهدين الناسكين الذين أعمى النعصب الممقوت أفئدتهم وأطفأ سراج عقولهم فكان من حقّه ان يتكتم وان لا يروح بأرائه اقتداءً بزميله شيخ المعرة خشية هؤلاء الكذابين الذين كانوا يلعبون بعقول العوام كما يشاؤون ويقودونهم كما يرغبون .

وقد انعط الشيوخ بالفجائع والزوايا التي أنزلت بزملائهم وأنسابهم في الرأي من الاحرار الذين جبلوا على الصراحة وفطروا على البوح بما تجيش به صدورهم فذاقوا من اجل ذلك عذاباً اليماً .

والنطم الذي أضجع عليه صالح بن عبد القدوس ، والسياط التي ألهمت جسد الحكيم الشهيد بشار بن برد الشاعر ، والجذع الذي صلب عليه الصوفي الشهير ابو منصور الحلاج ، والسيف الذي بتر عنق الفيلسوف السهروردي وغيرهم من الفطاحل الأفاضل الى غير ذلك من الفجائع والوقائع الاليمة — كانت عبراً ودروساً .

« الناسخ »

الناسخ مذهب قديم عرف بين الهنود وشاع بين عرب الجاهلية فقد زعموا ان الانسان

إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانصب هامة فيرجع الى رأس القبر على رأس كل مائة سنة وقد مدغمهم الرسول (ص) يردزعمهم فقال (لا هامة ولا عدوى ولا صفر) ثم كثر علم العرب بهذا المذهب في صدر الاسلام وذلك منذ أواخر القرن الاول وكانت بعض الفرق من غلاة الشيعة تدين به كاصحاب عبد الله بن سبا^(١) الذي قال لعلي عليه السلام (أنت أنت) أي أنت الآله فنفاه الى المدائن فادعى بتناسخ الجزء الآلهي في الأئمة بعد علي . ومثل هؤلاء اصحاب ابي كامل^(٢) الذي كان يدعي ان الامامة نور يتناسخ منتقلاً من شخص الى شخص وذلك النور يكون في شخص نبوة وفي شخص يكون امامة وربما تناسخت الامامة فصارت نبوة وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت . والغلاة على أصنافهم منفقون على التناسخ والحلول ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة في كل أمة تلقوها من الجوس والمزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابئة ومذهبهم ان الله تعالى قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر وذلك هو معنى الحلول وقد يكون الحلول بجزء كشمس اوراق الشمس في كوة او كشمس اوراقها على البلور واما الحلول بالكل فهو كظهور ملك بشخص او كشيطان بجيوان ومراتب التناسخ اربع التسخ والتسخ والتسخ والتسخ .

وقد اتخذ بعض الدعاة هذا المذهب وسيلة لنشر الدعاية لآل البيت ومن اولئك الشاعر السيد الحميري الذي أعماه التعصب فأخرجه عن طريق الصواب ولبس بين المطلعين على الآداب العربية من ينكر ما كان من ترهات الحميري وسخافاتة .

وقد عثر المستشرق (Zokovski) زووفوسكي في تاريخ الالفي على حكاية استدل بها بعض الباحثين على رسوخ عقيدة التناسخ في نفس عمر الخيام فقد ذكروا انه كان أستاذاً في مدرسة (نيسابور) وكانت المدرسة في حاجة الى ترميم واصلاح فكان سرب من الحمير يحمل الآجر الى المدرسة وبينما كان عمر الخيام يتمشى مع جماعة من التلاميذ شاهد حميراً وقف عند باب المدرسة ولم يشأ الدخول اليها فجاء عمر الخيام وتقرب من الحمار وقرأ في أذنه هذه الرباعية :

(١) وتسمى هذه الفرقة السبئية . (٢) وتسمى هذه الفرقة الكاملية راجع ١٣٢

اي رفته و باز آمده بل هم كشته نامت زميات نامها كم كشته
 ناخن هم جمع آمده و سم كشته ريش از يس كون در آمده دم كشته
 اسيه . يا أيها الذي ذهب وعاد سرّة أخرى وصار (كالانعام بل هم أضل سبيلا)
 قد ضاع اسمك بين الاسماء لقد اجتمعت أظافيرك وصارت ظلفاً وظهرت لحينك في عجزك
 فصارت ذيلًا .

فدخل الحمار المدرسة فسأله تلاميذه عن سر ذلك فأجابهم ان الروح التي حلت في
 جسد هذا الحمار كانت روح تليذ عاش وتعلم فيها لذلك لم يرغب الحمار في الدخول اليها
 غير انه لما شاهد رفقاءه الاقدمين رضي بالدخول .

والذي ينعم النظر في هذه الحكاية المضحكة لا يتردد طويلاً ان يعتقد بانها من
 القصص الملفقة المصطنعة وانها من نوع الاحاديث التي يخلطها العوام لان هذا الرجل الذي
 دلت حياته وآراؤه الفلسفية ومؤلفاته الجليلة ومكانته العالية بين ملوك عصره — على
 رجاحة عقله وصعوبة علمه لا يمكن ان يسف هذا الاسفاف وان ينقوه بهذا الرأي المبذول
 المأفون . هذا من جهة ومن جهة أخرى ان رباحياته التي اشتهر بها والتي أودعها آراءه
 الفلسفية تكاد تسوق الباحث الى الاعتقاد بالحاده وتكرانه البعث والحشر والنشر وبقينه
 بالعدم المحض لذلك ينال على الظن براءة هذا الحكيم الكامل من هذه العقيدة .
 وقد كان ابوالملاء المعري ممن ذم هذا الرأي وهزئ به وشنعه في رسالة الغفران
 وفي لزومياته فقال :

يقولون ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبه النقل
 فلا تقبلن ما يخبرونك ضلالة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

« تشاؤمها »

ان سيرة المعري والخيام وشعرهما وآراءهما في الكون تدل على انها كانا (متشائمين)
 متألمين ما فتئين للحياة لما فيها من شرور وآثام معتقدين ان كل ما فيها خطب وبلاء فالوجود
 خطب والحياة خطب والموت خطب والناس أشرار ذوو غدر وخيث وطباع فاسدة وان
 كل شيء في الكون خبيث ردي وان جملة الشرور فيه تفوق جملة الخيرات وان آلام الحياة
 وبؤسها وشقاءها أكثر من مسراتها وأفراحها .

والنشاؤم (مرض روحي) ابتلي به كثير من الفلاسفة والمفكرين من ذوي الامزجة العصبية وهو مذهب قديم نشأ في ديانة البوذيين وشاع في الشرق ودان به كثير من الحكماء فكانت خالق آلامهم وعلة اوجاعهم وهذا المرض العضال يتغلغل غالباً في نفوس سكان البلاد الحارة الموبوءة بالامراض القليلة الأرزاق الفقيرة التي مافيسا عمل ولا كسب وكثيراً مايحصل من الوراثة هذا عند عوام الناس وهو دقي لا يلبث ان ينقلب الى نفاؤل وفرح وسرور ان تحسنت الحالة فهو اذاً عند عامة الجمهور ضرب من الشكوى الوفتية المتولدة من (الحاجة) ومتى زالت الحاجة زال النشاؤم سريراً .

اما عند الحكماء المفكرين فأمره عظيم وشأنه كبير فانه يقول في نفوسهم من سلسلة التفكير العميقة والتأملات الطويلة في شؤون غامضة وامور مبهمة لم يتوصل العقل البشري الى حل معضلاتها كالوجود والواجب ومر الوجود والخلقة وعلتها ووضعها ونواميسها والكون ومنشئه وهل هو حادث او قديم وهل هو محدود ومتناهي او هو غير محدود وغير متناهٍ والأزلية والسببية والمبدأ والمنهى والمعاد والروح والخلود الى غير ذلك من الأسرار والألغاز التي ما تأمل فيها احد الارجمت تأملاته على أعقابها وتسرب اليه الرب ومال الى الشك قسراً لا اختياراً والشك الذي هو نتيجة عدم ادراك هذه المعميات هو الذي يولد (النشاؤم) ويورث الألم واليأس . وفي الحقيقة اذا فكر الانسان في علة وجود هذا الكون وفي سبب هذه الخليقة والايجاد والبقاء والانتقال الى جهة لا تعرف غايتها وعاقبتها وفي موته الذي يتخلى به عن رجائه وامله وامانيه يشعر ولا ريب بهزات عنيفة في وجدانه وصدمات قوية في شعوره واحساسه واستيلاء بأس مظلم مخيف وخيالات مرعبة واحلام محزنة والانسان مقطوع على حب البقاء في الحياة على ما فيها من وجع وكدر وآفة البقاء العدم وفكرة العدم والفناء والاضمحلال هي التي نورث النشاؤم الذي لامندوحة عنه ما دام موقفاً بها .

وقد أعدت الراحة الكبرى لمن كان معتقداً بكون له ابتداء وانتهاء أوجده خالق قدير من العدم وسيورده العدم كما أوجده وان هناك حشراً ونشراً وجسباً وعقاباً وان هناك جنة عرضها السموات والارض فيها حور عين وأباريق وكأس من معين وفاكهة ولحم

طير عما يشتمون أعدت للمؤمنين الصالحين وانت هناك ناراً ملتهبة فيها ألوان من العذاب
أعدت للمجرمين الآثمين .
فهذا الأمل الرائع يمنح المعتقدين راحةً وسلاماً وأماناً في الحياة فطوبى للمعتقد المؤمن
وويل للشاك المرتاب .

وان ابا العلاء المعري الذي تدل كلماته وأقواله على انه كان عنادياً بحتاً مرتاباً في وجود
خالق صانع مدير ، حائراً في سبب الخليفة والايجاد والفناء ، شاكاً في العقائد التي من
ضمنها الحشر والمعاد والخلود — يجب ان يكون بطبيعة الحال (منشأماً) وهذا هو الواقع
وانك لتجد عند قراءة (لزميانه) صحيفاته الأليمة وصرخاته الحزينة وكأنك تكاد تلس
بأسه وفنوطه في شعره من أسئلته الدالة على تحيره الكثير وارتبابه العظيم .
وهذه الآراء التي ضاق بها صدر هذا الحكيم والمصاب والنكبات التي ألمت به بفقدان
بصره وموت أبيه وأمه وفقره وزمنه هي التي أشعلت في قلب الشيخ جذوة اليأس والألم
فراح بكيل للآديان السباب وللأنبياء الشتم وللناس القذع ، ما فتئ الحياة وسكانها مرسلات
خرطوم من نار غضبه على طبائعهم وسجاياهم ، معتزلاً عن الناس ، ونزواً قابلاً في كسر داره
لنقاذه أمواج الشكوك حتى صيرته حليف الضي واليأس والبؤس وهل هناك برهان أقوى
على مقتته الحياة من إصابته ان يكتب على قبره .

هذا جناء ابي علا ي . واجنب على احد

وقوله :

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبئ
لفقدته ناظري ولزوم بدني وكون النفس في الجسد الخبيث

تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب في ازدياد

وقوله وهو دليل على مقتته الناس :

مسخ المعاشر فالغضنفر ثعلب في أوامه والناس كالنسناس
ونفكرت نفس اللبيب وقدرأت أشخاص جن أم أشخاص أناس

عرب وعجم دائلون وكلنا في الظلم اهل تشابه وجناس

والشر طبع قد بثت غريزته مقسومة بين أنواع وأجناس

سجايبا كلها غدر وخبت توارثها أناس عن أناس

وقد تزامت هذه الافكار في دماغ عمر الخيام كما تزامت في دماغ صاحبه المعري
وكان الشؤم واليأس ملازمين لروحه مسيطرين على احساسه وشعوره حتى بلغ من كراهته
للحياة وتشاؤمه منها انه تمنى انه لو لم يكن مخلوقاً في الدنيا .

كروآدم نم بمن بدى نامدى ورنيز شدن بمن بدى كى شدى

به زان بندى كه اندر بين عالم خاك نه آمدى نه شدى نه بدى

لوكان مجيئي باختياري لماجئت ولو كانت خلقي بيدي لما رغبت ان اخلق . الافضل
أنني لم اكن في هذا العالم ولم اجئ اليه ولم اخلق ولم ابق فيه .

لقد علمنا مما تقدم ذكره أن كلا الحكيمين اتفقا على ان الحياة خطب وبلاء . فقد اتفقا
واتفقا على تشخيص الدواء الا انها اختلفا في الدواء .

« الخمرة — المنية »

كان عمر الخيام يرى ان الوسيلة الوحيدة الى النجاة من آلام الحساسة السلافة . وكان
المعري يرى ان المنية هي الوسيلة الى ذلك وقد وصف الخيام الخمر بما وصف به ابوالمعالي
الموت . وفي طافتنا ان ندعي ان نفس المعاني التي ذكرها المعري في الموت جعلها الخيام في الخمر فقد
ذهب في المغالاة بمدها والامراف في حبها والولوع بها وحث الناس على شربها ما جعل بعض
الباحثين ان يسيثوا به الظنون ويتهربوا أقواله ضرباً من الجنون وبزعة من السفه وقد ذهب
الخيام في الخمرة مذهب اكثر الشعراء والحكماء الذين كانوا يرون ان فيها راحة للنفس
وتسكيناً للأوجاع وتخفيفاً للآلام والاكدار ومما ينسب الى الحكيم الفارابي في هذا
المعنى قوله :

يزجاجتين قطعت عمري وعليها عولت أمري

فزجاجة ملئت بيجر وزجاجة ملئت بخمر

فبذي أدوتن حكمتي وبذي ازيل هموم صدري
وتدل رباعياته على انه لم يشرب لجرد اللهو والعبث. وانما اتخذها دواء كما اتخذ المار بض
الدواء لمرضه وانه كان يرى ان السلافة هي الوسيلة الوحيدة الى تبديد هموم ونفوس
الكروب عن الصدور فمن ذلك قوله :

من خوردين من نه از برای طرب است في بهر فساد وترك دين وادب است
خواهم که بخوري بر آرم نفسي من خوردين ومست بودنمزين سبب است
ليس شرب الخمرة من اجل الطرب والفساد وترك الدين والآداب . انما أراد ان النفس
الصاعدة وانا ذاهل عن نفسي فشر بي الخمرة وسكري لهذا السبب .

از آمدن بهار واز رفتن دی اورق وجود ماهمی کرد دطی
من خور بخور اندوه که گفتست حکیم غمهای جهان جوز هرو تریاکش می
بین می ربیع وذهابه لئطوي اوراق وجودنا . أشرب الخمرة ولا نألم فقد قال
الحكيم ان آلام الحياة سم ودر ياقها الخمر .

وقد ظن بعض الباحثين ان السلافة التي يتغنى بها الخيام في رباعياته هي (سلافة
الحب) او (خمرة الحقيقة) او (السكر المقدس) وهي الخمرة الخيالية التي يشدها شعراء
الصوفية في قصائدهم مثل ابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم وفي الحقيقة ان هذا الظن
باطل غير صحيح فان عمر الخيام لم يتغزل بخمرة وهمية وانما تغزل بالمشعة الحمراء بنت
الكروم لآبادة الألم الرابض في صدره والرباعيتان اللتان تقدم ذكرهما كافيتمان في دحض
هذا الزعم .

وقد وصف الخيام المدامة باوصاف دقيقة بدیعة تدل على انه كاتب من دارس الخمرة
ومارس شربها دهر أطول بلا فهو في وصفه الرائع أشبه بابي نواس في وصفه لها حتى لقد سن
للسكاري قانوناً في كيفية تعاطيها قال :

کرباده خوري تو باخورد مندان خور يا باصنی لاله رخى خندان خور
بسیار بخور ورد مکن فاش مساز اندک خور وکه کاه خور وبنهان خور
اذ تثت شرب الخمرة فامثر بها مع العقلاء او مع ملج ضحوك ذي محيا منير ولا تشرب
كثيراً ولا تفحش في الكلام اشرب قليلاً وبين آونة وأخرى وفي الخفاء .

أما شيخ المعرة فقد خالف صاحبه في هذا المعنى وأكثر من ذم الخمرة وفيها وندد
بشاربها وزعم أنها سالبة العقول هاتكة الوفار مفرقة الاحباب وقد أجهز على السلافة في
لؤميانه فمن ذلك قوله :

وحاذر من الصبياء فهي عدوة من الصهب مشت في مفاصلك السكر

البابلية باب كل بلية	فتوفين هجوم ذاك الباب
جرت ملاحاة الصديق وهجره	واذى النديم وفرقة الاحباب
ام الحباب وان أميت لهيها	بمزاجها وافت كأم حباب
هتكت حجاب الحصان وحشمت	مهن العبيد نهضم الارباب
ونوم الشيب المدالف انهم	لبسوا على كبر برود شباب
واذا تأملت الحوادث ألغيت	صهب الدنان اعادي الالباب

ديب نمل من عقار نخالها	بجسمك شر من ديب العقارب
ولو انها كلماء طلق لأوجبت	قلاها اصيلات النعي والتجارب

تجوع موت لا تجوع لذة من الخمر في كاساتهم والابارق
قلنا غير مرة ان الخيام والمعري كانا يريان الحياة خطباً وشرّاً يجب التخلص منها
أما الخيام فقد رأى ان احسن وسيلة لنجيه منها هي (الخمرة) وأما المعري فقد ذمها وكان
يرى ان الموت هو الدواء الشافي وكان يتطلب الفرج على يد المنية وقد تمناها في كثير من
شعره فمن قوله :

أما حياقي فإني عندها فرج	فليت شعري عن موقى اذا قدما
صحبت عيشاً أعانيه وبغليتي	مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقد مللت زماناً شرسه لذب	اذا دنا خبط عاد فاحندما
من باعني بحياقي ميتة سرحا	بايعته واهات الله من ندما

رب متى ارحل عن هذه الـ لذيها فاني قد اطلت المقام
لم ادر ما فيجي ولكنني في الخس مذكان جري واسنقام
فلا صدقي يتزجي يدي ولا عدوي يتخشي انتقام
والعيش سقم للفقى منصب والموت يأتي بشفاء السقام
والترب مشوي ومشوام وما رأينا احداً منه قام

* * *

ملأت عيشي فعوجي بامنية بي وذقت فنين من بؤس ومن رغد
غدي سيوجد امسي لا ينازعني في ذاك خلق وامسي لا يصير غدي
« مصير الجسم بعد الموت »

وقد اختلف الحكماء أيضاً في قضية مصير الجسم بعد موته فكأن ابو العلاء تارة
يحمل بجسم الانسان بعد موته وتارة لا يرغب في تكريمه ولا يهتم بما يفعل به لانه لا يحس
ولا يتألم فمن قوله في تكريم الجسم :

خفف الوطأ ما أظن اديم الـ أرض الا من هذه الاجساد
ممر ان اسطعت في المواقف بداء لا اختياراً على رفات العباد
ومن قوله في عدم تكريمه :

تكريم اوصال الفنى بعد موته وهن اذا ظال الزمان هباء
وقد غالى المرء في عدم الاعناء بالجسد حتى استغنى من عادات المنيود حرق
أمواتهم .

فالعجب لتعريق اهل الهند ميتهم وذاك ارواح من طول التباريح
ان احرقوه فما يخشون من ضيع تسرى اليه ولا خفي وتطريح
والنار اطيب من كافور ميقنا غباً واذهب للتكرار والريح
وقد خالف الخيام شيخ المعرة في هذا المعنى فكأن مبالغة في تكريم الجسد موصياً
الخزاف بالرفق عند جبله الطين قائلاً انها أجسام بشرية يجب ان تعامل بالحسنى .
اي كوزه كران بكوش اكره شياري تاجند كني بر كل آدم خواري
انكشت فربدون وكف كيجسرو بر جرخ نهاده جء مي بنسداري

ايها الخرافون اسمعوني ان كنتم منتهين : حتى م تظلمون طينة ابن آدم . انكم قد
وضعتن اضيع فريدون وكف كخسرو على الدولاب فماذا تظنون ؟
دي كوزه كري بدبدم اندر بازار بر باره كلى لكدم همى زد بسيار
وآن كل بر بان حال باوي ميكفت من مهمجو توبوده ام مراييكودار
رأيت امس خزاناً في السوق وكان ير كل قطعة من الطين وكان لسان حالها يقول
للخزان لقد كنت يا هذا مثلك فعاماني بالحسنى .
وقد عاش الشيخان عزيزين ولم يتزوجا وكان رأي المعري في المرأة شيئاً وكان يكره
النسل ويرى الزواج إثماً وجرماً عظيمين فلم يشأ ان يجني على غيره كما جنى عليه ابوه
وفي ذلك يقول :

وارحت اولادي فهم في نعمة الـ عدم التي فضلت نعيم العاجل
ولو انهم ظهروا لعانوا شدة ترمي بهم في موبقات الآجل

فالبث وحيداً لا وصية غة في ذراك ولا وصيف

ومع ان الخيام عاش بلا ريب اعزب فلم نطلع على رأيه في الزواج والمرأة والنسل .
لقد علمت ايها السادة مما تقدم ذكره ان عمر الخيام لم يأنثا بشيء جديد وانما كرر
ما تكلم به قبله شيخ المعرة وترنم بعين النغمة التي كان يترنم بها حكيمنا الجليل . فسلام
على الجزيرة وسلام على ربوع الشام منبت الفحول العظام .

احمد حامد الصراف

العراقي

—••••—

رسالة الكرم

- ٢ -

« اول ما ينبت من الحب والغرس »

اول ما ينبت من الحببة لسميه الحببة ما لم يغرسه بايدينا فنزعه ثم يغرسه . فاذا غرسناه سميناها غرساً . هكذا جاء في الكتاب المنسوب للاصمعي ولم أر من ذكر الحببة بهذا المعنى . والذي في اللسان والتاج ان الحببة واحدة الحنن وهو صغار القردان ولا معنى له هنا ولعلها محرفة عن الحببة . ويؤيد هذا ما جاء في المخصص فقد قال فيه : قال بعض الطائفيين اول ما ينبت من الحببة يسمى الحببة ما لم ننزعه فنغرسه بايدينا فاذا نزعناه ثم غرسناه سميناها غرساً وسيأتي عن التاج ان الحببة كثبة العنب اول ما ينبت من الحب ما لم يغرس جمعه حي كهدى .

وقال في المخصص ايضاً اذا نبتت حبة العنب وهي العجوة والحصرمة والفرد و هي طائفية . والنواة فهي حببة ما لم ينزع نباتها من موضعه فيغرس فاذا نزع ثم غرس سمي 'غرساً' (هكذا ضبط بالشكل بضم الغين ولم ارها لغيره) وسيأتي تحقيق اسمها في الغراس . الاصمعي عن ابي الخطيب . العنب اول ما يغرس يكون غرساً ثم نصرم في قر قابل اي يقطع من غصونها ما ييس منها اجمع حتى يبق منها اصلها ثم نخروج لها شكر فاذا علفت الغريسة قطعت من وجه الارض وترك اصلها وعروقها في الارض فاذا قطع رأسها دُمَّتْ بالدِّمْنِ اي التي على اصلها الدمن وهو السرجين .

فاذا نبت اصلها الذي في الارض ثانياً فهي نشأة . وقد أنشأت اذا نبتت . وفي القاموس النشئة والنشأة ما نهض من كل نبات ولكنه لم يغلظ بعد ويخوض في اللسان . ويأتي نشأ بمعنى حي ، وارتفع ، وربا ، وشب ، وبدا .

وبالسرى سرى عرق الشجرة في الارض يسري مرياً ، دب تحت الارض . وقد تقدم ان عروق كل شيء اطنا ب تشعب منه واحدها عرق والعرقاة بالكسر جمع عرق وعرقاة وقال الليث العرقاة من الشجر أرومة الأوسط ومنه تشعب العروق . وبالسرى السرى عرق الشجر والكرم اذا نبت بعدما قطع .

الغرس — عقاقيل الكرم ما غرس منه . ولم يذكر لها واحد . قال الشاعر :

نجد رقاب الاوس من كل جانب كجد عقاقيل الكروم خبيرها

الفَسَل — فضبان الكرم للغرس وهو ما أخذ من أمهاته ثم غرس والافئسال قطع
غصنة الكرم للغرس . واسم الغصن الفصل .

العكيس — القضيبي من الحيلة يعكس تحت الارض الى موضع آخر . (الاصمعي)

المكبسة التي تمس الارض في قضبانها وهي أغلظ من الشكر .

الشكير كقضيبي الكرم يغرس من قضيبيه جمعه شُكْر كقَضْب والفعل منه شَكِر
كفروح وأشكر واشتكر .

وشُكْر الكرم (قضبان الطوال) وقيل قضبانه الاعلى .

وفي المخصص فان غرس الكرم من قضيبيه فاسم القضيبي الشكير وجمعه شكر وهو
ايضاً زرجونة ثم قال والحيلة كالشكير .

والشكير ما ينبت من القضبان الغضة الرخصة بين القضبان العاسية . وما ينبت حول
الشجرة من اصلها . او ما ينبت في اصلها من الورق ليس بالكبار والشكير ما ينبت في
اصول الشجر الكبار . والورق الصغار ينبت بعد الكبار وقيل الشكير الشجر الذي
ينبت حول الشجر .

الفريسة شجر العنب اول ما يغرس ، والنواة التي تزرع ، والغرس بالفتح الشجر الذي
يغرس والجمع أغراس وغراس والغرس القضيبي الذي يزرع من الحبة ثم يغرس .

والغراس بالكسر زمن الغرس ووقته وما يغرس من الشجر والمغرس موضع الغرس وجمعه
مغراس وغرس الشجر من باب ضرب وأغرسه ايضاً بمعنى أثبتته في الارض فالشجر مغروس
وغراس وغرس كما تقدم ولم نجد غرسة بضم الغين او بفتحها في اللسان والتاج والمصباح
ولعل الاولى تحريف والثانية واحدة الغرس فتأمل .

ويقال نبت الزرع والشجر نبتتاً اذا غرسه ، والنسابت من كل شيء الطري حين
ينبت صغيراً . ويقال استأصلت الشجرة نبتت وثبت أصلها .

«التطعيم»

أطعم النخيل إطعاماً وطعمه تطعماً إذا وصل به غصناً من غير شجره قطعاً النخيل أي قبل الوصل .

الغروز بالضم : الاغصان تغرز في قضبان الكرم للوصل واحدها غرز بالغرز والتغاريز مأحول من فسيل النخل وغيره الواحد تغريز سمي بذلك لانه يحول من موضع الى موضع فيغرز وهو التغريز .

وغرز عوداً في الارض وركزه بمعنى واحد ، وكل ما غرز في شيء فقد غُرِزَ وغُرِزَ « ماء الكرم »

أعطى الكرم إذا جرى فيه الماء وزاد ونما .
النوحيم : ان ينطف^(١) الماء من عود النواحي إذا كسر يقال وسمت الكرمة نوحيم .
الدماغ كومان وغراب ما يسيل من الكرم في ايام الربيع . كذا في اللسان والمخصص
واقصر الصاغاني على الاول قال في التاج وفي نسخ الصحاح والاساس بالتخفيف .
النسخ بالضم ماء يخرج من الشجرة اذا قطعت .
وقد تقدم ذكر العسل وهو الندي الذي تخرجه عروق الشجر الى غصونها .

«الأبن والزمع وما شاكلهما»

وإذا جرى الماء بعد الخطاب قيل أطررت شكره ثم يقال ازغبت .
وبقال ازغب الكرم وازغاب كاحمر واحمر إذا صار في أبن (عقد) الاغصان التي تخرج منها العناقيد مثل الزغب^(٢) وذلك إذا جرى فيه الماء وبدأ يورق .
الأبن جمع أبنة بالضم وهي العقدة في العود او العصا ويقال لها عين وجمعها عيون وقد تقدم ان قطعاً الشجر أبنها التي تخرج منها اذا قطعت الواحدة قطعة .
الزمع محركة أبن تكون في مخارج عناقيد الكرم . وقيل الزمعة الحبة اذا كانت مثل رأس الذرة واحدها زمعة بالفتح ويجمع على زمعات . ويقال ازمنت الحيلة اذا عظمت

(١) نطف الماء ينطفقطر قليلاً قليلاً .

(٢) الزغب اول ما يبدو من شعر الصبي والمهر وريش الفرخ .

زعمتها ودنا خروج الحبيبة منها . وفي اللسان الزمعة الطلمعة في نواحي الكرم بعدما يصوف^(١) .
وقيل العقدة في مخرج العنقود . وفي الاصمعي اذا رأيت فيه الطلع قلت أزمع وفيه ايضا
العنب اول شيء يخرج منه ان تعظم الزمعة فاذا عظمت جداً سميتها بنية ثم يكون
حترأ ثم يكون غصناً^(٢) وذلك اول ما يعقد فلا يزال غصناً حتى يأخذ سيفه النضج ويرى
فيه السواد .

فاذا عظمت الزمعة سميت بنية كسفيئة .

ويقال اكحت البنية^(٣) اذا ابيضت وخرج عليها مثل القطن .

وفي المخصص والبنائقي . هي الكوافيراي الاغطية .

ويقال اكح الكرم بالحاء المعجمة اكحاً اذا تحرك للابراق . واكح بالخاء المعجمة

(١) هكذا ضبط في اللسان في مادة زمع وقد ذكر في مادة : صوف ، صوف الكرم
بتشديد الواو وهو الموافق لما في التاج والاصمعي والمخصص .

(٢) هكذا في نسخة الاصمعي وكتب الشارح في ذيلها عند هذه اللفظة اي (غصناً)
ومنه أغصن العنقود وغصن اذا كبر حبه شيئاً . ومن البين ان قوله ثم يكون غصناً وذلك
اول ما يعقد الخ يتنافي فوهم أغصن العنقود اذا كبر حبه شيئاً في العبارتين تبين بين
والظاهر ان في العبارة تحريفاً لم يفتن له الشارح وان اصلها هكذا : ثم يكون غصناً .

وقد وقع في عبارة اللسان في تفسير الغض خطأ : وذلك انه قال والغض الحين
من حين يعقد الى ان يسود ويبيض وقيل هو بعد ان يجدر الى ان ينضج الخ . ولا معنى
للحين ولا يجدر في هذا المقام والصواب في الاول الحين وفي الثاني يجدر كما تدل عليه
عبارة المخصص فقد جاء فيه : اذا صار حب العنب فوق النضج قيل جدر ثم يكون
غصناً . ثم قال والغض من صفات الحين . ثم قال وقيل هو غض من حين يعقد الى ان
يسود ويبيض . وقيل هو بعد ان يجدر الى ان ينضج وقد جاء عن الاصمعي ما يؤيد ذلك
فيما نقله عن ابن الخطاب : ثم يجدر اذا كان فوق ذلك . قال يخرج مثل الجدي ثم
يكون غصناً ثم يرق حتى يبلن ويطيب وسيأتي ذلك مفصلاً في موضعه .

(٣) في اللسان الزمعة .

بدت زعماته وذلك حين يتحرك الاوراق .
وفي اللسان حشرة الكرم زعمته بعد الاكلخ وسيأتي الحثر في العنقود .
« نعطينه »

ويقال قطن الكرم نقطيناً وعطب نعطياً اذا بدت زعماته وظهرت . وفي المخصص
اذا تحرك الاوراق فبدت زعماته ظهر لها عطب فيقال قد عطب الكرم وقطن واكخ وفي
اللسان العُطْب والعُطْب القطن واحدته عطبة .
« تحببه ونفحه »

جدر الكرم كفرح اذا حبب وهم بالاوراق . وفي اللسان جدر النبات يجدر وجدر
جدارة وجدر وأجدر طلعت رؤوسه في اول الربيع وذلك يكون عشراً او نصف شهر .
الأصمعي صوَّف الكرم بدت عيونه . وفي المخصص فاذا بدت عيون النواحي بعدما
نصرم قلت صوَّف . وفي اللسان والتاج : صوَّف الكرم بدت نواحيه بعد الصرام يقال
صرم الفحل والشجر والزرع اي جزه . والصرام بالفتح يكسر أو ان ادراكه . والصرم
القطع البائن للعبيل والعذق ونحو ذلك الصرام .

ويقال بصص الشجر اذا تفتح للاوراق . وبصصت البراعم اذا تفتحت الكمة الرياض
وبصصت الارض ظهر منها اول ما يظهر من نباتها كبصصت وأبصت وأبصت .
وجصص العنب والشجر وهو اول ما يرى منه شيء قد خرج مثل بصص مأخوذ من
تجصيص الجرو اذا هم ان يفتح عينيه . وجصص العنقود هم بالخروج .

الخضب ما يظهر في الشجر من خضرة عند ابتداء الاوراق وجمعه خضوب وخضب
الشجر يخضب خضوباً . وخضرب وخضرب واخضوب ككلمة بمعنى اخضر وخضبت
الارض خضباً طلع نباتها واخضر .
« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

آراء وافكار

حول تصحيح الجزء السابع

« من كتاب نهاية الأرب »

- ٢ -

(١٥) - وجاء في ص ٢٠٥ س ١٥ يصف العدو الذي استسلم : فأبصر بالخدمة موضع رشده اه . ذكر الاستاذ ان الصواب : « فأبصر بالخدمق » بدل الخدمة وقال : (لان الخدمق سبب ابصاره رشده اما الخدمة فانما تصح ارادتها على استكراء وتكلف) اه ونقول : ان الباء في قوله بالخدمة ليست بمعنى السببية كما فهم الاستاذ وبني على ذلك انتقاده وانما هي بمعنى (في) الظرفية والمراد ان هذا العدو قد أبصر رشده - في رجوعه الى الطاعة وملازمته للخدمة وبذلك على ذلك قول الكاتب قبل هذه العبارة (وكان الملك فلان ممن يريد طرق النجاة فلم ير اليها بسوى الطاعة سبيلاً) وبأمل اسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلاً اه) . واذا فلا موجب لتغيير لفظ الخدمة بالخدمق مادام المعنى صحيحاً لاستكراء فيه ولا تكلف -

(١٦) - وجاء في ص ٢١٤ س ١٥ يصف الرسالة التي يقال ان سيدنا ابا بكر ارسلها الى سيدنا علي « ومخبات الصنادق » اعترض الاستاذ على قوله : « الصنادق » (بان صوابه الصناديق بالياء لمكان الواو في مفردة وهو صندوق) . ونقول : أجاز علماء الكوفة حذف الياء من مماثل مفاعيل كما أجازوا زيادة تلك الياء في مماثل مفاعل فنقول في جمافر جمع جعفر : جمافير كما نقول في عصافير جمع عصفور : عصافر ، ومن الاول قوله تعالى : (ولو ألقى معاذيره) والاصل معاذره بدون ياء جمع معذرة . ومن الثاني وهو حذف الياء قوله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب) والاصل مفاتيح بالياء جمع مفاتيح ، واذا كان ذلك مذهباً لبعض علماء الصرف مستشهدين على صحته بالنزول العزيز وهو حجة لا تجحد لم نشأ والحالة هذه ان نغير ما جاء في الاصل فنزيد ياء - في قوله : « صنادق » لجواز ان يكون صاحب هذا الكلام جازياً على مذهب الكوفيين في ذلك .

(١٧) — وجاء في ص ٢١٧ من ٥ (والتعريض سجال الفئنة اه) . وسجال جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة ، يريد بهذه العبارة ان التعريض بالكلام وهو التلميح به الى عيوب الخصوم يحمل الشر والفئنة في ثناياه كما تحمل الدلو الماء . وإذن فعبارة الاصل مستقيمة لا خطأ فيها ، وقد وردت هذه العبارة ايضاً في صبح الأعشي وقد قال الاستاذ ان الصواب (شجار) بدل (سجال) كما في نسخة المخطوطة لمخاضة الأبرار ، وقال في تفسير الشجار انه من شجر الطبيب ف المريض اذا فتحه بواسطة عود ثم صب فيه الدواء والعود المذكور هو الشجار ، ومعنى كون التعريض شجار الفئنة ان التورية في الكلام والتلميح به الى عيوب الخصوم تثير الحفاظ وتعيج الأحقاد ويكون ذلك كالشجار يفتح به فم الفئنة) الخ كلام الاستاذ . ونقول : « ان المعنى متى اسقام على الرواية الاولى فلا موجب لطرحها ووضع غيرها مكانها على ان القاري المدقق اذا وازن بين الروابطين ونظر بذوقه ليعرف اي المعنيين أقرب الى الأذهان واي السكيتين أشبه بالأساليب العربية في مثل هذا الغرض الذي نحن بصدده لتبين له واضحاً ان المعنى في الرواية الاولى أشد تبادراً الى الذهن وأقل تكلفاً في توجيهه من الرواية الثانية التي نقلها الاستاذ عن مخاضة الأبرار كما يظهر له ان التعبير بسجال أقرب الى الأساليب العربية في مثل هذا المعنى من التعبير بشجار وانك اذا راجعت كلام العرب وجدتهم اذا ذكروا الفتن والحروب شبهوها بالأشياء المظروفة كالماء ونحوه وليس أدل على ذلك من قولهم : (الحرب بيننا سجال) قال في اللسان في تفسير هذه الكلمة مانعه : معناه (اننا ندال عليه مرة وبدال علينا أخرى وذلك لان المستقيمين بسجلين من البئر يكون اكل واحد منهما سجال اي دلو ملأى ماء) اه . فأت ترى من هذا ان المساجلة في الحروب اصله من السجل وهو الدلو على التشبيه .

(١٨) — وجاء في ص ٢١٨ من ٧ من كلام ابي بكر رضي الله تعالى عنه الى علي قال : (ما هذا الذي تسول لك نفسك) الى ان قال : (ويسري فيه ظعنك) اه يريد بقوله : (ويسري فيه ظعنك) اظهار العجب والدهشة من هذه الخطة التي اتبعها علي رضي الله تعالى عنه معه حين ابى عليه البيعة فقال : (ما هذا الذي يسري فيه ظعنك ، اي ما هذه السبيل المظلمة التي تسلكها ويسري فيها ركبك على غير هدك متبعاً بسلوها

غير سبيل المؤمنين كأنه يقول : ان هذا خلاف ما نعرفه منك ، ونهمله فيك) . وقد ذكر الاستاذ « ان في نسخة المخطوطة لمحاضرة الأبرار : (ويستشري فيه ضغتك) ورأى تفضيل هذه الرواية على الاولى » ونقول : اننا لم نقبل وجه التفضيل احدى الروايتين على صاحبها ونرى انهما مستويتان في ظهور المراد وتأدية الغرض والثناء مع ما قبلها من الكلام على انه ان كان هناك وجه للتفضيل فان الرواية الاولى أليق باخلاق ابي بكر وأنسب بأدبه دون الثانية لما فيها من شتم علي رضي الله تعالى عنه ونسبة الضغن والحقد الى صدره المأهول بالقوى المعمور بأداب الكتاب والسنة .

(١٩) — وجاء في ص ٢١٨ س ١٠ من كلام ابي بكر ايضاً الى علي رضي الله عنهما (أو مثلك ينقبض عليه الفضاء) الخ المعنى أو مثلك في ذكائه وقيلته بضيق عليه المنع من الامور ، وتلتوي عليه سبل الرشد مع ظهورها ، وتخفى عليه طرق الهداية مع وضوحها واستبانتها . وقال الاستاذ : « لعل الأصوب ما في النسخة الأخرى اي نسخة محاضرة الأبرار : (يُنْصَبُّ عليه الفضاء) . كان (ينقبض) اي بضيق عليه الفضاء » ونقول : ان الانقباض ايضاً يؤدي هذا المعنى فانه ضد الاتساع والانبساط وما دام المعنى واحداً في كتلي الروايتين فلا وجه للتفضيل احدهما على الأخرى .

(٢٠) — وجاء في ص ٢١٩ س ٩ في كلام ابي بكر ايضاً : « لا نبلغ مراداً الى شيء الا بعد جرع العذاب معه » الخ . قال الاستاذ : (ان الصواب إسقاط احدى الكلمتين إما كلمة (مراداً) او كلمة (الى شيء) فتكون العبارة هكذا : ولا نبلغ الى شيء الا بعد الخ او (ولا نبلغ مراداً الا بعد) الخ كلام الاستاذ . ونقول : ان تحطيط الاستاذ بعبارة الاصل وتصويب حذف احدى الكلمتين انما سر يا اليه من انه فهم ان قوله : (الى شيء) متعلق (بنبلغ) وليس كما فهم ولكنه متعلق بقوله (مراداً) وفعل الارادة يتعدى بالي اذا ضمته معنى الحاجة والاضطرار ومنه قول الشاعر :

اذا ما المرء كان ابوه عيساً فحبك ماثريد الى الكلام

قال في لسان العرب بعد ذكر هذا البيت (انما عداه بالي لان فيه معنى الذي يحوجك او يجيبك الى الكلام) اه فقله هنا مراداً الى شيء اي حاجة الى شيء .

(٢١) — وجاء في ص ٢٢٠ س ٢ من كلام ابي بكر ايضاً : (وانقبض الخير لك)

المعنى يستره لك ، وقر به منك ، وجمله في مثناول يدك ، فاستعار الانهاض لهذا المعنى كما يستعار الانهاض في الحظ ايضاً فيقال : أنهض الله حظك ، اي أقاله من كبوته . وقال الاستاذ : « لعل الأصوب ما سيفي نسخنا المخطوطة اي نسخة محاضرة الابرار (وأرهض الخير) الخ يقال : أرهض الشيء اذا أثبته وأسهه » . ونقول : ان المعنى الذي يبناه للرواية الاولى ظاهر لا تكلف فيه فلا نرى ما يوجب طرحها ووضع الرواية الثانية مكانها ولنا في حاجة الى ان نبين هنا ان اكثر الكلام العربي من نظم ونثر قد اختلفت فيه الروايات الى اكثر من ثلثين وشرّاح دواوين العرب تثبت جميع هذه الروايات ولا تثبت رواية مع اطراح الباقي مادام لكل رواية صحيحاً معنى تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب .

(٢٢) — وجاء في ص ٢٣١ س ٨ : (وخصه بمزية وأفرده بمسالة) الخ يريد : وأفرده بصفة من صفات الخير اي ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك واحداً من أصحابه رضي الله تعالى عنهم الا أننى عليه وذكره بصفة يحمدها . وقال الاستاذ : « لعل الأصوب (بمسالة) مكان (حالة) واحتج لذلك بان الحاصل تشمل الحسن والقبح من الصفات بخلاف (الجلالة) » . ونقول : ان سياق الكلام يعين ان المراد بالجملة احدى صفات الخير دون غيرها من الصفات فانه بقول قبل هذا : « اما تعلم انه لم يدع — اي النبي صلى الله عليه وسلم — أحداً من أصحابه وأقاربه وسجرائه الا أبانه بفضيلة ، وخصه بمزية » الخ ، على ان قوله (بمزية) عام ايضاً لا تخصيص فيه اذ لفظ المزية كلّفظ الجملة في اشتراكها بين صفات الخير والشر فكان مقتضى الاحتجاج الاستاذ تغيير قوله (بمزية) ايضاً .

(٢٣) — وجاء في ص ٢٢٣ س ٥ من كلام ابي عبيدة بن الجراح (لحقني اي عمر — بوجه يدي تهللا) الخ . ومعنى قوله : (يدي تهللا) ان أمارات السرور والبشر بادبة على محياء ظاهرة لا خفاء بها . واما قول الاستاذ : (ان قوله يدي تهللا) لبس من جنس كلام العرب فذلك ما ننوقف في قبوله اذ لا يمكننا الحكم به الا بعد الاطاحة بكلام العرب نظماً ونثراً على ان مثل ذلك التعبير شائع في الشعر قال الشاعر :

يبدون في رجع الوقائع بشرهم والشمس كالحلة الاهاب قطوب

واما الرواية الثانية التي استصوبها الاستاذ وهي قوله : (يدي) بالنون مكان (يدي)

فهي رواية جيدة أيضاً لاخلاف في ذلك وإنما الخلاف في تحطّي الاستاذ للرواية الاولى وقد ظهر صوابها بما بينا .

(٢٤) — وجاء في ص ٢٢٥ س ١١ في كلام عمر بن الخطاب يريد به علياً رضي الله تعالى عنهما (حين لا راد لقولك الا من كان منك ، ولا تابع لك الا من كان طامعاً فيك ، يمض إهابك و يعرك اديمك) الخ . يريد بقوله : (يمض إهابك) ان أتباعك من الطامعين فيك لا ينقطع طمعهم حتى اذا استنفدوا كل مالدبك واستخلصوا كل ما في يدك ولم يبق الا إهابك اي جلدك امتصوه كما يمض العلق الدماء رجاء ان يجدوا فيه ما يسد مطمعهم . وقد كنى عمر رضي الله تعالى عنه بهذه العبارة عن ان الطامع لا يترك في يد المظموع فيه حقيراً ولا جليلاً الا تبعته عينه وامتد اليه طمعه هذا الذي فهمناه من هذه العبارة عند تصحيحنا لها وإذن فلا موجب ان نستبدل قوله (يمض) بالصاد المعجمة بقوله : (يمض) بالضاد المعجمة كما رآه الاستاذ ويمضه من مضه الامر اي أحرقه وأوجعه بل اننا نرى ان في الرواية الاولى من المبالغة في وصف تكالب الطامعين وحرصهم ما لا يخفى على ذي بصر بكلام العرب

« للبحث صلة »

مصححه

احمد الزين

مطبوعات حديثة

دمية القصر

« وعصرة اهل العصر »

لابي الحسن علي بن الحسن الباخري المشوفي سنة ٤٦٧ هـ وبليه ملنقطات
من ديوانه . طبعه وصححه الشيخ محمد راغب الطباخ بحلب ص ٣١٦ والملنقط
من شعره ص ٥٤ . الطبعة الاولى سنة ١٣٤٩ - ١٩٣٠

هذا ما ذيل به الباخري على بنية الدهر للثعالي ، ونسج في ذبله على منوال الاصل ،
ذكر فيه تراجم من كانوا على الأغلب بعد عصر الثعالي من شعراء البدو والهجاء والشام
وديار بكر وآذربيجان والجزيرة والعراق وبلاد المغرب والري والجهال وجرجان واستراباذ
ودهستان وقومس وخوارزم وماوراءالنهر وخراسان وقهستان وسجستان وغزنة وغيرهم .
والتزم المؤلف التوثيق بهم بالجميع وبعضه الجيد ، واكثره متكلف بعدد دون طبعة الثعالي ،
كما ان من ترجم لهم هم في ادبهم دون رجال التتمة ، والضعف باد على منشورهم ومنظومهم ،
وان كالمؤلف لهم ولنفسه ولا به المديح كبراً على عادة الفرس في مبالغاتهم .

والباخري نسبة الى باخري (بفتح الباء الموحدة وبمد الألف خاتمة مفعلة مفتوحة
ثم راء ساكنة وبعدها زاي) ناحية من نواحي نيسابور . وباخري بين نيسابور وهراة .
وحقيقة ان هذا النمط من التراجم المختصرة لا يبق في ذهن القاري أقل صورة حقيقية
عن المترجم له ولا عن عصره وشعره ونثره . وقليل من المؤلفين من وفقوا في هذه السبيل
توفيق ابن إسماعيل في الذخيرة والثعالي في التتمة ولسان الدين في الإحاطة والفتح بن خافان
في القلائد . وقليل فبين جمعوا التراجم وكتبوا الطبقات من دانوا الصولي في كتاب
الأرزاق وبافوت في معجم الادباء وابن خلكان في الوفيات والصفدي في الوافي بالوفيات
وابن سعد في طبقاته والجمحي في طبقات الشعراء والاصفهاني في الاغانى والجهشياري
في كتاب الوزراء والكتاب والقفطي في اخبار الحكماء وابن أبي أصيبعة في طبقات
الاطباء والصابي في تاريخ الوزراء .

و يخيّل اليك وانت تقرأ دمية القصر انك في القرن العاشر او الحادي عشر كأنك
تتلو ريحانة الخفاجي او سلافة ابن معصوم لا في القرن الخامس الذي كان على جانب
من الأدب متين . وقد اعتمد الناشر على احياء هذا الكتاب على نسخة في المدرسة
الاحمدية بحلب وعلى أخرى في المكتبة المارونية في حلب أيضاً والثالثة نسخت له من
الموصل ولم يزد في التعليقات على ما رآه شيئاً في حين ترى الحاجة ماسة الى الشرح والتعليق
وبقي في نفسه من تصحيح هذا السفر اشياء كما قال عن نفسه . وقد احسن باثبات ما يرى
بعضهم اليوم حذفه من المحون لان المقصد الانقاع بما كتبه المؤلف غثاً كانت او رقيقاً
لا التعديل في اشياء يستنكرها بعضهم اليوم وكانت أمس مما لا شأن له .

م . ك

ديوان التحقيق

« والمحاكمات الكبرى »

تأليف محمد عبد الله عنان بك طبع في دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٨

— ١٩٣٠) بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٤٤

هذا كتاب كذا كثير ما نشره المؤلف حتى الآن جامع بين أفكار الغرب وما ينفع به
هذا الشرق ، جوّد تأليفه على الأسلوب الحديث واخذه من اوثق المصادر الافرنجية
وبعض المصادر العربية وقد قسمه قسمين الاول في تاريخ ديوان التحقيق (الانكليزي سيون)
ولاسيما الاسباني وما آل اليه من جلاء العرب وتنصيرهم في الاندلس وعرض في القسم
الثاني للمحاكمات الكبرى في التاريخ الغربي . وكلها تدل على ظلم الانسان الانسان ،
وان دعوى الشفقة والمرحمة قل ان وجدت في الامم الحديثة والقديمة . فعسى ان يقع
المطالع العربي في هذا الجلد على امور نفيدة في قيام مجتمعه الحديث فلا يرتكب من
الخطايا ما وقع فيه اخوه الانسان في سالف الازمان ، وعسى ان تصح عزيمة المؤلف للجماعة
على وضع كتاب ليجاء وقع للعرب من هذا القبيل .

م . ك

قلب الطفل

« تأليف ادمون دو آمينشي تعريب السيد عن الدين النخعي طبع بالمطبعة »

« الحديثة بدمشق (١٣٤٩ - ١٩٣٠) ص ١٨٧ الجزء الاول »

مؤلف اصل هذا الكتاب من علماء التربية في ايطاليا ، جعله دروساً للأطفال يتلقون فيها حقائق لنير العقل ونكوت الخلق ونبت العلم ، وقد ترجم الى كثير من اللغات الاوربية . وما نظنه الا كان في الاصل بلغة ساذجة يفهمها الطفل الذي كتبت له . اما الترجمة العربية فمع حسنها لانكاد تخلو من العهدة ، لان المترجم وهو يعربها عن ترجمة افرسية توحي ان يصور الاصل فما استطاع احياناً الا ان يأتي بشيء بعد من عوبص اللغة عند الطلبة المبتدئين ، وان كان من المؤلف عند جمهور المتأدبين ، فاذا اُضيف الى هذا العوبص كونه لم يفسر ولم يشكل ضاعت فائدة الكتاب على من يراود استنارتهم بقبس العلم ، وتلقيتهم الفضائل العملية ، وانحصر النفع فيمن يتلون فيفهمون وقليل ما هم . وقد يما قالوا ان البلاغة ان يعطى كل موضوع الكلمات التي تليق به فلا يخاطب العالم خطاب الجاهل ولا الكبير كما يخاطب الصغير .

م . ك

افريقية الغربية البريطانية

« تأليف السيد عمر رضا كحالة طبع بمطبعة الفحاء في دمشق ص ١٣٢ »

هذا باحث مفكر من اهل النشأة الحديثة في دمشق ، رحل الى افريقية الغربية وأقام فيها مدة وكتب في تاريخها وحاضرها واهلها وحيوانها ونباتها وعاداتها وخبراتها الخ صفحات قليلة أظهر بها ما كان العربي في معزل عن معرفته واذا احتساج الى شيء منه فلا يقع عليه الا في كتب الافرنج ، وعسى ان ينظر الكاتب في لغة كتابه في الطبعة الثانية ويحذف بعض المكررات من افكاره وتعليقاته النافعة .

م . ك

كتاب قواعد الافعال السامية

« وصيغها لزمانية »

للاستاذ مارسيل كوهن طبع في باريس سنة ١٩٣٤ في ٣١٧
 Marcel Cohen - Le Systeme Verbal Simitique et
 l'Expression du temps .

وضع هذا الكتاب بالفرنسية وهو يتضمن ابحاثاً لغوية سامية خاصة بالافعال ودلالاتها الزمانية في مختلف اللغات السامية من قديمها وحديثها ولطالما عابوا عليها عدم الوضوح التام في بيان حدوث الفعل في الماضي والحاضر والمستقبل كما هو الحال في اللغات الهندية الاوروبية . وبالرغم من صعوبة هذا البحث فقد عالج المؤلف من جميع النجاة وتوسع فيه بصورة دلت على طول باعه واحاطته بجميع نفعاته ، وقد استفاد المؤلف من الوثائق القديمة فبين جهود اللغات السامية الفصحى وعدم تطورها مستشهداً باللغة الآكادية التي لم يطرأ عليها التطور خلال ثلاث آلاف سنة ومثلها العربية لم تخط خطوة في هذا السبيل منذ تدوينها ، كما انه ذكر شواهد على تشابه اللغات السامية وقلة الفروق بين تراكيبها ، فالكنعانية القديمة مثلاً تشبه العربية من اوجه كثيرة . كما ان المؤلف بحث في تطور بعض اللهجات السامية العامية منذ القرن الثالث حتى القرن العاشر بعد الميلاد وتباعدتها عن قواعد اللغة الفصحى ، وقد أورد المؤلف نصوصاً كثيرة أثبت بها بحرف لا ينبتة لثقل من المطالع احياناً جهوداً لقراءتها . ولهذا الكتاب قيمة علمية عظيمة ومكانة مؤلفه وشهرته لا تحتاجان الى تعريف .

جعفر الحسني

